نجاتي صدقي

بوشكين
أمير شعراء روسيا

اقرأ ٢٨

تصدرها دار المعارف
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وأنطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف

اقرأ ٢٨ — مارس سنة ١٩٤٥





الكسندر بوشكين

من رسالة للأديب الكبير الأستاذ

ميخائيل نعيمة

« . . . وأما الفصول التى تلطفت وقرأتها لى من الدراسة التى تعدها عن بوشكين فقد تركت فى ضميرى كثيراً من السرور مع شىء من الامتنان لك . ذاك لأنك قمت ببعض الواجب الذى كان من المفروض أن أقوم به أنا نظراً للصلة المتينة التى بينى وبين الآداب الروسية . فقد رشفتها صافية من منابعها الصافية . ولكم تمنيت لو يتاح لى نقل بعضها إلى لغتنا كيما ينعم أبناء الضاد ولو بنفحات من طيوبها النادرة المثال بين آداب الأمم .

« وها أنت تأخذ الكسندر بوشكين ، أعظم شعراء الروس ، وقمة باسقة ما بين قمم الشعر الباسقات فى الأرض ، فتنقل إلى قراء العربية أخبار حياته القصيرة المدى والحافلة بكل جليل ومدهش من الأخبار .

« ومما يزيد فى قيمة عملك أنك ، وقد حصلت من اللغة

الروسية قسطاً ليس بالقليل ، تستقى معلوماتك من مصادرها الأصلية ، وفى ذاك ما يغرينى بالأمل — وقد فرغت من حياة بوشكين — أن أراك تنصرف إلى نقل بعض المعالم الأدبية الروسية إلى العربية . فمن المخجل أن تبقى إلى الآن محجوبة عن العرب . وما من أمة حية — كبيرة كانت أم صغيرة — إلا تتمتع اليوم بنصيب من جمالها الفتان ، وغناها المفرط ، وروحها الإنسانى العميق » .

ميخائيل نعيمة

(من رسالة إلى المؤلف بتاريخ ٣ آب ١٩٤٤ ، عن بسكنتا لبنان) .

تمهيد

سيرة بوشكين هى سفر جليل الشأن فى تاريخ الأدب الروسى وصفحة مجيدة من التاريخ الروسى العام . فدراسة هذا الشاعر الكبير تدفع المرء لأن يستعرض الأدب الروسى جملة، وأن يتتبع مراحل القيصرية الروسية منذ بطرس الأكبر حتى نيقولا الأول ، ويعود إلى تصفح الحوادث التاريخية التى وقعت فى تلك الديار فى النصف الأول للقرن التاسع عشر ، أى منذ الغزوة النابليونية حتى أول حركة دستورية وقعت فى روسيا سنة ١٨٢٥.

فكيفما ولى المرء وجهه فى التاريخ الروسى فى تلك الحقبة من الزمن وجد اسم بوشكين بارزاً فى كل باب ومضمار ، ومهما طالع من نظم الشاعر ونثره وجد التاريخ الروسى أمام عينيه جلياً واضحاً .

ولذا ، فبوشكين للروس هو مثل المتنبى للعرب ، وشكسبير للانكليز ، ودانتى للايطاليين ، وغوته للألمان ، مع حفظ الفوارق القومية والذاتية ، إنه منحة نادرة من منح الدهر ، لم يعش أكثر من سبع وثلاثين سنة ، لكنه كان وافر الإنتاج ، غزير المادة

فترك من الآثار الشعرية والأدبية الشيء الكثير، مما يخيل لقارئه أنه كان يجر ذيلا طويلا من السنين .

فعصر بوشكين هو العصر الذهبي للشعر الروسى ، هو عصر التقارب والتعارف بين الأدب الروسى من جهة والآداب الغربية والشرقية من جهة أخرى .

كان بوشكين نهاية و بدءا فى الأدب الروسى ؛ نهاية عصر الجمود المطبوع بالكلاسيكية المزيفة ، و بدء انطلاق الروح من عقالها والتسامى بالنفس ، والتطلع إلى الشعب ، ونشدان الحقائق.

عرف زمن بوشكين بالاستبداد الاجتماعى ، زمن كان يباح به لمالك الأرض أن يملك الفلاحين كما يملك الماشية ، وكانت السلطات كلها مركزة بيد القيصر ونبلاء المملكة ، وإذ بدأت الارستقراطية الروسية تتراجع أمام التطور الصناعى فى البلاد ، وتتقهقر أمام المدنية الأوروبية ، برز من بين هذه الفئة الآخذة بالأغلال رجال ينشدون الحرية السياسية والاستقلال الفكرى .

وكان بوشكين المنحدر من أسرة نبيلة ، أول من أعرب عن انحلال وسطه ، وطالب الإقرار بالشعب بوصفه المرجع الأول والأخير للسلطة .

كان بوشكين أول من استهل الدعوة إلى الحد من سيادة النبلاء فى روسيا ، كما كان الكونت تولستوى آخر من اختتم تلك الدعوة بانفصاله عن بيئته ومحاولته توزيع أراضيه بين الفلاحين الروس .

فبوشكين نبيل ، وتولستوى نبيل ، وكلاهما كان ناقماً على مجتمعه ، مطالباً تقييد الحكم القيصرى ، وإعلاء شأن الأنظمة الديموقراطية بين الناس ، غير أن الأول حصر أمانيه فى الحصول على بعض الحريات السياسية والثقافية ، بينما الثانى حث على مقاومة التطور الصناعى ، والعودة إلى الأرض الأم ، وتحويل المجتمع الروسى القروى إلى مجتمع تعاونى زراعى يقوم على نظام المشاع القديم .

لقد تأثر بوشكين فى بدء طلعته بالأدب الفرنسى، لكنه ما كاد ينضج ويحتك بالمجتمع حتى ولّى وجهه صوب الأدب الإنكليزى فأعجب باتجاه بيرون العاطفى ، ثم أخذ يمجد شكسبير وينحو نحوه فى مسرحياته ، مع محافظته التامة على الروح والطابع الروسيين .

ومما يجدر بنا ذكره أن بوشكين إبان زيارته للقرم والقوقاس تأثر بالمحيط الإسلامى ، فأوحى له قصائد جمة مثل (نافورة

باغشى سراى) ، و (الأسير القوقازى) ، و (القوقاز) وغيرها ، وقد عول إثر تلك الزيارة على تعلم اللغة العربية ، ولا تزال الأوراق التى خط عليها الأحرف العربية محفوظة فى متحف فى لننغراد حتى أيامنا هذه .

فمؤلفات بوشكين مترجمة اليوم إلى معظم لغات شعوب الاتحاد السوفياتى ، والكل يطالعها ويطرب لها ويفهم معانيها ، دون فرق إن كان القارىء روسياً أم أوزبكياً .

قيل إن جماعة من فتيان وفتيات روسيا اليوم بينما كانوا يطوفون متنزهين فى موسكو وقفوا عند تمثال لبوشكين وقد كتب على قاعدته بيت من شعره قال فيه : « مرحى أيتها الأجيال الفتية المقبـــلة ! » ، وإذ هم على ذلك نفرت من بينهم فتاة فى السابعة عشرة من عمرها وقد عصبت رأسها بمنديل أحمر ، وصرخت بصوت برىء : مرحى بوشكين !

***

قل من يعرف سيرة بوشكين ومؤلفاته من قراء العربية وذلك على عكس تولستوى ، ودستويفسكى ، وتشيخوف ، فانهم معروفون لدى عدد لا يستهان به من مثقفى البلاد العربية ، ولذا

عمدت إلى تلخيص مغزى أهم قصائد الشاعر ، ومسرحياته ، وقصصه ، وترجمت مقاطع من شعره أوردتها لا لكى تؤخذ مادة للحكم على بوشكين ، وإنما لمجرد المتعة الأدبية ، كما أرفقت كتابى هذا بفهرس لشخصيات روسية مجهولة للقارىء العربى ، وفسرت له بعض الحوادث التاريخية ليتمكن من متابعة الموضوع بسهولة تامة .

إن هذه الدراسة هى ثمار مطالعة طويلة لمؤلفات بوشكين وترجمة حياته ، وإننى لا أعتبرها قد شملت كل مناحيه ، لكنها تعطى القارىء العربى صورة واضحة عن اتجاهات أمير شعراء روسيا الشعرية والأدبية ، وتمهد له السبيل للتعرف إلى ما ترجم منها إلى اللغات الانكليزية والفرنسية والعربية .

نجاتى صدقى

ألكسندر بوشكين

• أمير شعراء روسيا

كنت وقتئذ أطلب العلم فى جامعة موسكو ، وفى تلك الأثناء سمعت لأول مرة باسم الكسندر بوشكين أمير شعراء روسيا ، وكانت المناسبة فى ذلك أن الطالبة الروسية « تاتيانا » حدّدت لى موعداً عند تمثال بوشكين الواقع فى مدخل تقرسكوى بولڤار ، ولما تقابلنا فى الموعد المضروب جلسنا هنيهة قبالة التمثال ورحنا نتجاذب أطراف الأحاديث فتطرقنا إلى الشعر الروسى ، وشعراء الروس ، ومنهم الشاعر الكبير بوشكين ، فكانت جليستى تحدثنى عنه وتشير بيدها إلى ناحيته ، ولما كنت أتتبع أقوالها وأجارى حركاتها استرعت انتباهى ملامح شرقية فى وجه الشاعر ، فقلت لها : ما لى أرى شاعركم أجعد الشعر ، غليظ الشفتين ، بارز الصدغين ، فهى ملامح لا تكون فى الروس عادة ؟ . . قالت والابتسامة على ثغرها : لا تعجب فإن شاعرنا ينحدر من أصل حبشى !

وهنا أخذتنى الحيرة ، وأشكل على الأمر ، وجعلت أسائل نفسى : أيكون شاعر الروس العظيم من أصل حبشى ؟ . . وهل يعقل أن ينجب العنصر الأسود عباقرة إذا ما مزج بدم الصقالبة الشماليين ؟ . .

ومنذ ذلك الحين عقدت النية على درس حيـــاة بوشكين والإحاطة بمؤلفاته ، فأقبلت على إجادة اللغة الروسية ، وكانت « تاتيانا » أستاذتى فى إتقان تلك اللغة ، ومعينى فى الارتواء من منهل ذلك الشاعر العبقرى .

***

هاجم جماعة من القرصان فى أواخر القرن السابع عشر شواطىء الحبشة، واستولوا على جمع من الأطفال، وكان بينهم ابن أحد أمراء الأحباش فى الثامنة من عمره ، ثم أبحروا بهم إلى الآستانة حيث باعوهم فى المزاد العلنى ، وكان ابن الأمير الحبشى من نصيب سفير روسيا فى الآستانة إذ افتداه وقدمه هدية للقيصر بطرس الأكبر.

أحب بطرس الطفل الحبشى فعمده وتبناه وسماه إبراهيم بيتروفتش هانيبال [1] ، ولما بلغ من العمر الثامنة عشرة أرسله إلى

(١) انظر الفهرس فى آخر الكتاب .

مدرسة سان سير بباريس ليتلقى العلوم الحربية فيها ، فتوجه إلى العاصمة الفرنسية ومكث فيها مدة ثمانى سنوات ، أصبح خلالها قائداً فى المدفعية ، ثم اشترك فى الحرب الاسبانية سنة ١٧٠٣ وأصيب بجرح بليغ فى رأسه ، فعاد إلى باريس ومنها إلى روسيا حيث كان بطرس الأكبر بانتظاره .

لقد فرح القيصر بعودة إبراهيم هانيبال فرحاً عظيما ، وجعله قائداً لإحدى فرق المدفعية ، وزوجه من ابنة أحد وجهاء الروس واسمها نتاليا غافريلوفنا آفاناسيفتش ، وأكرمه ، وأغدق عليه العطايا .

ولما توفى بطرس الأكبر سنة ١٧٢٥ فقد إبراهيم الأب الشفوق الذى كان يرعاه ويعنى بأمره ، فانقلب عليه بعض الوزراء وسعوا إلى إبعاده عن العاصمة الروسية إلى منطقة شمالية نائية ، لكن قساوة الإقليم ، وآلام الوحدة ، اضطرتاه إلى العودة خفية إلى قريته الواقعة بالقرب من بطرسبورغ ، فظل مختفياً فيها طيلة مدة حكم أنا إيفانوفنا ، ولما اعتلت إليزابيت پتروفنا العرش ظهر هانيبال ثانية فى بلاطها فغمرته بعطفها ولطفها .

وكانت وفاة ربيب بطرس الأكبر إبان حكم كاترين الثانية

عن اثنتين وتسعين سنة ، وكان إذ ذاك جنرالا فى المدفعية ، وخلف أولاداً ، وكان أحدهم من أقدر رجالات الجيش الروسى فى العصر الإكاترينى .

وفى سنة ١٧٩٨ تزوج سرجى لفوفتش بوشكين ، أحد أشراف روسيا ، بفتاة حسناء تدعى ناديجدا اوسيبوفنا هانيبال هى حفيدة إبراهيم هانيبال ربيب بطرس الأكبر ، وناقلة الملامح الزنجيـة ، والدم الإفريقى إلى أمير شعراء روسـيا ألـكسندر سرجيفتش بوشكين .

طفولة بوشكين

ولد بوشكين فى موسكو فى السادس والعشرين من شهر أيار (مايو) سنة ١٧٩٩ ، وكان والداه يسيران على منوال أهل الأوساط الروسية العليا فى تلك الأيام ، يقضيان حياة مسرفة فى اللهو والتمتع بالملذات ، فلا يدعان فرصة تفوتهما لارتياد المراقص والملاهى وإقامة الحفلات الساهرة الصاخبة ، تاركين أمر الاعتناء بطفلهما إلى الخدم والمربين الأجانب ، الذين كانوا دائماً عرضة للتغيير والتبديل ، عدا عن عدم إتقانهم اللغة الروسية الإتقان

الكافى لتربية الأطفال ، الأمر الذى ترك أثره فى الطفل بوشكين فكان حتى التاسعة من عمره سكوتاً قليل الحركة ، غير أن هذه المظاهر الخارجية لم تحجب عن الأعين سرعة انتباهه وتعطشه إلى إدراك الحقائق المحيطة به .

لقد تربى الطفل فى أول طلعته تربية فرنسية ، وما أن بلغ الحادية عشرة حتى كان يطالع بسهولة تامة أى كتاب فرنسى يقع فى يده . قال أخوه ليف بوشكين فى مذكراته : « كان أخى يقضى الليالى ساهراً ، فينسل خفية إلى مكتبة والدنا فيلتهم الكتب الواحد إثر الآخر . . لقد كان يتحلى الكسندر بذاكرة خارقة ، وأعجب ما فيه أنه استظهر الأدب الفرنسى أجمعه وهو فى الحادية عشرة من عمره ! »

لم يدع بوشكين مؤلفاً للكتاب الفرنسيين الكلاسيكيين إلا وطالعه ، كما أنه لم يدع كتاباً لعلماء القرن الثامن عشر وأدبائه إلا وأكب عليه وبذلك أتيح له أن يتعرف منذ صغره إلى الآراء الناضجة التى قامت عليها الثقافة الأوروبية فى ذلك العصر .

فثقافة بوشكين والحالة هذه كانت ثقافة فرنسية ، غير أنه فى الوقت ذاته لم يكن منعزلا عن المحيط الروسى ، وعن مؤثرات

الحياة الروسية ، فمنذ أن أخذ يدب على الأرض حضنته مربيته الروسية (آرينا رودپونوفنا) ، وهى امرأة فلاحة ذات اطلاع واسع فى القصص الشعبية الروسية ، فكانت تلمج بالطفل بوشكين فى عالم سحرى من الخيال الشعبى الروسى ، وتوحى له حب اللغة الروسية ، وتعلمه الكتابة والقراءة ، وتلقنه الحكم والأمثال ، وتحفظه الأغانى والأناشيد والأهازيج الروسية المختلفة . وكان فى خدمة بيت بوشكين أيضاً فلاح يدعى (نيكيتا كوزولوف) ، فكثيراً ما كان هذا الفلاح يتجول مع بوشكين فى شوارع موسكو ، فيتمتع الطفل بمشاهدة صور من حياة العامة من الناس ، ويستمع إلى لهجاتهم ، وتعابيرهم ، ونوادرهم ، فكان لهذا وذاك أن امتزجت التربية الغربية فى رأس الطفل بمؤثرات البيئة الروسية القومية ، وأصبحت كلتاهما جزءاً لا يتجزأ من نفسه ، يضاف إلى ذلك كله أن أباه كان ينظم الشعر ، وأن عمه (ڤاسيلى لڤوڤتش بوشكين) كان شاعراً بارزاً فى وقته .

ولما كنا بصدد العوامل التى صقلت ذهنية بوشكين الطفل ، نقول إن مجتمع موسكو كان يعيش بعيداً عن بلاط القيصر وحاشيته ، فنى موسكو هذه أقام عدد كبير من المفكرين الذين

لم يجعلوا همهم البحث عن مناصب فى دوائر الدولة ، ولذا كانوا أكثر استقلالا فى تفكيرهم ، وأشد تحسساً بكرامتهم الشخصية ، على نقيض مجتمع بطرسبورغ فى ذاك الحين فانه كان يعج ببائعى الضمائر ، و بالمتمسحين بأعتاب البلاط القيصرى .

فجو موسكو هذا نفذ إلى نفس الطفل من حيث لا يشعر ، فقد تبينت فيه منذ نعومة أظفاره صفات خاصة نعتها بعضهم بالعناد والتصلب بينما كانت هى با كورة شعوره بالاستقلال الذاتى ، ونفوره من القهر والمذلة .

بوشكين فى معهد النبلاء

فى ضواحى بطرسبورغ ، وعلى بعد عشرة أميال منها ، يرى المرء قرية صغيرة تعرف بـ « تسارسكويه سيلو » ، و إلى الجانب الغربى من هذه القرية يقوم قصر عامر صقلبى الهندسة والبناء ، أنشىء خصيصاً لتؤمه الأسرة القيصرية فى فصل الصيف ، فتقضى فيه شهرين أو ثلاثة أشهر بعيدة عن ضجيج العاصمة ومشا كل الحكم ، ولهذا القصر الذى تحيط به الأشجار الباسقة ، والفوارات الجميلة الصنع ، جناح أعده القيصر الكسندر الأول

ليكون معهداً علمياً مهمته تحضير شبان ممتازين من أبناء الأسر الروسية العريقة لتعهد إليهم فى المستقبل الوظائف الخطيرة الشأن فى الدوائر الحكومية القيصرية :

ففى اليوم التاسع عشر من شهر تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٨١١ احتفل بافتتاح المعهد المذكور بحضور القيصر الكسندر الأول وعدد كبير من الوزراء والأمراء والأعيان ، وقد أبدى القيصر فى هذا الاحتفال رغبته بأن يكون المعهد داخلياً لا يضم أكثر من ثلاثين طالباً ، وألاّ يسمح لهؤلاء الطلاب بزيارة أهليهم إلا فى الحالات الاستثنائية ، وأن تكون مدة الدراسة ست سنوات فلا يخرج الطالب من المعهد هذا إلا وقد أتمها بكاملها ، وعلى هذه الأسس باشر المعهد عمله ، فانضم إليه فريق منتخب من أبناء الأسر البارزة وكان فى عدادهم الشاب بوشكين البالغ من العمر اثنتى عشرة سنة فقط .

والمعروف عن بوشكين فى حياته المدرسية هذه أنه ألّف حوله حلقة من عشاق الأدب والمفكرين الأحرار ، مثل الشعراء پوشين (٢) ، وكوخيلبيكر (٣) ، ودلفيغ (٤) ، وغيرهم ، وكانوا مستقلين كل الاستقلال عن جماعات التزلف والارتزاق التى

أحاطت بالقيصر الكسندر الأول كإحاطة السوار بالمعصم ، ينظرون بعين نقادة ليس إلى كل ما كان يجرى داخل القصر القيصرى فحسب ، بل إلى نمط المعيشة الروسية بأسره ، وقد امتاز بوشكين على زملائه بعطفه على عامة الناس ، فكان له بين خدم القرية القيصرية ، وفلاحيها ، و بوابيها ، خلان ومحبون .

أما نظام التعليم فى المعهد فلم يقم على مستوى عال ، إذ افترض أولو الأمر أن يجعلوا برامج السنوات الست الدراسية تشمل التعليم الثانوى والعالى فى آن واحد ، فكانت النتيجة أن اضطرب مجرى التدريس ، وصار معظم المدرسين يلقنون طلاب المعهد المعلومات السطحية ، ويحشون أدمغتهم بالقشور دون اللباب ، فانقطع حبل الصلة فيما بينهم و بين طلابهم ، فغدا هؤلاء فى واد وأولئك فى واد آخر ، حتى أن أحداً من هؤلاء المدرسين لم يتمكن من اكتشاف مواهب بوشكين وعبقريته بل على النقيض من ذلك ، لقد رأوا فيه العيوب والنقائص مجسمة .

وعلى سبيل المثل نورد ما كتبه عنه أحد أساتذته فى ملاحظاته السنوية قال : « الكسندر بوشكين كسول جداً ومتغطرس ، وكفاءاته لا بأس بها ، فهو على الجملة ذكى غير أن ذكاءه

و يا للأسف منصرف إلى تنميق العبارات الجوفاء ، ومن صفاته الأخرى أنه طائش ، ومغرور ، ومهمل ، لكنه طيب القلب ، ويميل بصورة خاصة إلى نظم الشعر » .

وكان بين مدرسى معهد القرية القيصرية أساتذة أفاضل ، خلا أولئك السطحيين ، ثقفوا طلابهم تثقيفاً حسناً ، ووجهوهم توجيهاً ممتازاً ، نذكر منهم الأستاذ (بودرى مارا) أستاذ اللغة الفرنسية ، وهو شقيق (دافيد مارا) أحد زعماء الثورة الفرنسية الكبرى ، فوجود شقيق مارا فى المعهد كان بحد ذاته حافزاً للطلاب الناشئين على اعتناق الفكرة الديمقراطية الفتية .

ومن أساتذة المعهد الذين كان لهم يد بيضاء على الثلاثين طالباً البروفسور كونيتسين أستاذ علم الاجتماع والحق الطبيعى ، فهو رجل تثقف فى أوروبا فتأثرت آراؤه العلمية بالفلسفة الإنشائية المتغذية بروح المساواة ، ومقت الاستبداد واستنكار أمر استعباد إنسان لآخر ، فلما عاد إلى روسيا انضم إلى معهد القرية القيصرية وكان يلقن طلابه نظريات مستغربة جداً بالنسبة للنظريات التى سادت روسيا فى ذلك العصر ، فمنها قوله :

« المعنى من حق الفرد أن لكل إنسان أن يتصرف بما يملكه من

قوة روحية ومادية حسب رغبته واختياره ، على ألا يعاكسه في ذلك معاكس » .

« وإن الحرية الفردية هي حق قطعي لا ينقض ولا ينسخ ، وكل من يحاول منع الإنسان من التمتع بشروط معاشية إنسانية ، فهو شخص يجب قهره بطبيعة الحال ، باعتباره كائناً لا يعترف به ناموس العقل ولا يقر بوجوده »

« وكل إنسان في داخليته حر ، ولا يخضع إلا لناموس العقل ، وعلى ذلك لا يجوز لغيره من الناس أن يتخذوه وسيلة لتحقيق مقاصدهم . وكل من يعتدي على حرية غيره فإنه يسلك مسلكا يتنافى مع طبيعة ذاته ، ولما كانت طبيعة الناس ، بقطع النظر عن اختلاف أوضاعهم ، هي واحدة ، فان كل اعتداء جائر يقع على الفرد يثير فينا روح السخط والاستنكار . وهذا ما يبين لنا على أن العدل بين الناس أمر طبيعي »

وعلى ذلك نرى أن الفكرة الأساسية للمبدإ الديمقراطي قد نفذت إلى ذلك المعهد الذي أنشىء في قصر القيصر ، ووجدت فيه تربة صالحة ، وكان بوشكين أكثر التلاميذ تحمساً لاستماع محاضرات الأستاذ كونيتسين في مواضيعه الاجتماعية .

لقد كان بوشكين فى حياته المدرسية عربيداً إلى حد المغالاة مثل زملائه الفتيان النبلاء الناشئين ، غير أن طبيعته التى فطر عليها كانت ، كما قال (تشرنيشيفسكى)[٥] ، طبيعة سليمة من الشوائب ، تفوقت فيها الأحاسيس الإيجابية مثل الصداقة ، والحب ، والنزوع إلى الاجتماع .

وإذ كان بوشكين يواصل دراسته وقعت فى حياة روسيا العامة حوادث على غاية من الأهمية وأبرزها :

مساهمة روسيا مساهمة فعالة فى السياسة الأوروبية ، وغزو نابليون لروسيا ، وإحراق موسكو ، ثم كسر الفرنسيين فى (بورودينو) ، وزحف الجيوش الروسية على أوروبا وسقوط باريس والقبض على نابليون ونفيه ، فهذه الحوادث الجسام مجتمعة حملت بوشكين على الاعتقاد ، كما حملت غيره من أنصار الرقى والتقدم ، أن القيصر الكسندر الأول سيقدم على انتهاج سياسة تستند إلى مبادىء الحرية ان فى روسيا أو فى أوروبا على السواء ، غير أن بوشكين ما لبث أن أصيب بخيبة فى آماله فلم يجد فى مولاه ذلك البطل الذى ينشده .

وبالرغم من أن معهد القرية القيصرية كان معهداً داخلياً ، منعزلا عن الحياة العامة ، فان تلاميذه كانوا على اتصال وثيق بالاتجاهات السياسية والأدبية الجارية فى موسكو وبطرسبورغ ، وقد شاءت الظروف وقتئذ أن ترابط فى القرية القيصرية كتيبة من الفرسان معظم ضباطها من أنصار (الدسمبريين) [٦] فكان هؤلاء الضباط بحكم وجودهم ضمن نطاق القصر يحتكون بتلاميذ المعهد ويروون لهم ما يقع فى البلاد من حوادث ، ويمدونهم بمطبوعات ديمقراطية المبادىء ، وكان بين أولئك الضباط شاب يدعى (تشادايف) [٧] وهو فيلسوف أديب أعجب به بوشكين كل الإعجاب وأكثر من الاتصال به وتبادل الآراء وإياه .

لقد كانت سنوات دراسة بوشكين مرحلة أساسية فى تقرير نزعته الأدبيه والسياسية ، وكان المعهد أشبه بجمهورية صغيرة يمارس أفرادها الأدب على أنواعه ، فكانوا يصدرون مجلة خطية ، ويقيمون الحفلات الأدبية ، والمسامرات القصصية ، عدا تمثيل الروايات الجدية والهزلية ، أما نظم الشعر فقد كان واجباً مسجلا فى البرنامج الدراسى ، وعلى ذلك تكوّن فى المعهد وسط إبداعى

يتابع باهتمام زائد مجرى الحياة الروحية فى البلاد الروسية ، ويشترك فى المجادلات الأدبية الجارية خارج جدران المعهد ، وكانت قصيدة (إلى صديق الشاعر) أول قصيدة للطالب بوشكين وقد نشرتها له وقتئذ مجلة « الرسول الأوروبى » الصادرة فى بطرسبورغ.

ولما كانت هذه القصيدة هى باكورة قصائد بوشكين وهو فى الخامسة عشرة من عمره رأينا تلخيصها لتكوين فكرة واضحة عن نابغة الروس الكبير .

جعل بوشكين قصيدته هذه حواراً يدور بينه وبين (آريست)[٨] — صديقه الشاعر — ، فاستهل الحوار بقوله :

« أأنت أيضاً يا آريست تحشر نفسك بين خدمة آلهة الشعر ، وترفع عقيرتك بالهجو والثلب ! . .

« دع القلم والمحبرة ، وآنس الأنهر والأحراج ، والقبور المحزنة ، . . إن الشعراء لكثيرون بدونك أيضاً ، إنهم اليوم ينظمون الشعر ، وغداً سيسدل العالم عليهم شعار النسيان . .

« أجل ، إنك ستقطب حاجبيك لدى سماعك قولى هذا وستجيبنى : أرجوك ألاّ تجهد نفسك ، إننى إن قررت شيئاً فلن أتخلى عنه ، لقد كُتب لى أن أنظم الشعر ، ودَع العالم يصدر

حكمه فىّ كما يحلو له ، إحنق علىّ وأصرخ ، وعربد ، إننى مع ذلك كله سأظل شاعراً .

« آريست ، اسمع ما أقوله لك : ليس الشاعر هو الذى يحسن جمع القوافى ، ويسرف فى تحبير الورق وبرى الأقلام ؛ كلا ، ليس من السهل على المرء أن يقول الشعر ، وليس من الأمر الهيّن إيجاد شعراء أمثال ديمتربيف [٩] ، ودرجافين [١٠] ولومونوسوف [١١] فهؤلاء المنشدون الخالدون يعلمونا حب الوطن وتمجيده ، أنهم يبثون روح الحق ، وينيرون الأذهانَ .

« ولنفترض أنك بلغت قمة الشعر بسلام ، وغدا الكل يقرؤك ، ولقبت بالشاعر المفلق . . فهل تعتقد أن نهراً من الذهب سيتدفق عليك ؟ . . أو أن صناديق حديدية ملآنة بـ (التشرفونيتس) [١٢] ستكون تحت تصرفك ؟ . .

« كلا أيها الصديق ، إن ثروة الشاعر لا تتمثل بالقصور المرمرية ، ولا بصناديق الأموال الحديدية ، إن قصر الشاعر مؤلف من طابقين : جحر فى بطن الأرض وكوخ فوقها . . والشاعر الحق هو الذى يولد عرياناً ، وإلى القبر يذهب عرياناً . . أنسيت أن الشاعر اليونانى (كامونيس) كان ينام مع الفقراء فى

فراش واحد ؟ . . وأن الشاعر (كوستروف) مات فى كوخه ولم يدر به أحد ، ودفن بأيد غريبة ؟ . . حقاً إن حياة الشعراء كلها أحزان وأحلام .

« يخال لى أنك ستوجه إلىَّ القول التالى : أراك أصبحت (جوثينالاً)[١٣] آخر تصدر أحكامك فى الشعراء بصرامة ، وأنت نفسك غارق فى الشعر حتى الأذنين . . ألا زلت فى عقلك ؟ . .

« آريست ، إننى أجيبك على قولك هذا بالقصة التالية : أذكر أن قساً طاعناً فى السن ، وقد غمر الشيب رأسه ، كان يقطن قرية من قرى الشمال ، وكان مسالماً مع جيرانه ، يعيش بالقناعة والشرف والاستقامة ، والكل يلقبه بالحكيم الأول .

« وحدث مرة أن دعى القس إلى حفلة عرس صاخبة ، فلما حل الليل عاد إلى بيته وقد فعلت الخمرة فى رأسه فعلها ، وإذ هو يسير فى طريقه قابله فريق من الفلاحين فاستوقفوه مستغربين وقالوا له : أبانا ! . ألم تمنعنا بذاتك عن شرب الخمرة . ونصحتنا أن نكون دائماً واعين ؟ . . فما الذى حدا بك أن تفعل نقيض ما تنصح به ؟ . .

« قال القس للفلاحين : أصغوا إلى جيداً : عليكم أن تفعلوا

بمقتضى ما ألقنكم أياه فى الـكنيسة ، عيشوا عيشة هنيئة طيبة ، ولا تحاولوا تقليدى !

« وأقول لك بدورى يا (آريست) غير محاول تبرير نفسى : سعيد المرء الذى لا ينظم الشعر و إنما يقضى عمره فى جوٍّ هادىء ، بعيداً عن الهموم والأحزان .

« والآن أيها الصديق العزيز : بعد أن قدمت لك نصيحتى ، هل تعتزم التزام الصمت أم لا ؟ . . فكر جيداً وتخير أحد أمرين : إما المجد فهو حسن ، وإما الهدوء فهو أحسن ! . »

وفى الثامن من شهر كانون الثانى (يناير) سنة ١٨١٥ كان اليوم المعين لاجتياز طلاب المعهد الامتحان السنوى بحضور عميد شعراء الروس الشاعر الشيخ درجافين ، ووزير المعارف رازوموفسكى ، وكبير رجال الدين فى بطرسبورغ ، وغيرهم من كبار موظفى الدولة وأعيان العاصمة ، وأسر الطلاب وأصدقائهم . ولما جاء دور بوشكين اشرأبت إليه الأعناق ، فانتصف القاعة وألقى بصوت جهورى قصيدته العصماء (ذكريات القرية القيصرية) فإذا بالامتحان يتحول إلى مظاهرة ينتصر فيها المستمعون للشاعر الفتى ، وهو أول اعتراف إجماعى به ، وكان

الشيخ درجافين يصغى إلى بوشكين بانتباه زائد ، واضعاً يده على جبهته ويتمتم قائلا : هذا هو خلف درجافين ! . .

كتب بوشكين فيما بعد يذكر تلك الفترة الشائقة فى حياته فقال : « جرى امتحاننا السنوى لعام ١٨١٥ ، وقد اضطرب بنا كثيراً لما عرفنا أن درجافين سيكون بين الهيأة الممتحنة . . كان درجافين طاعناً فى السن ، وكانت تبدو عليه أثناء الامتحان علائم السآمة والملل ، وبقيت موجات النعاس تتناوبه إلى أن جاء دور الأدب الروسى ، هنا انتعش درجافين ، وبرقت عيناه ، وتغيرت ملامحه تماماً ، فشرع التلاميذ يقرأون شعره ويفسرونه ، ويطنبون بعظمة الشاعر وعبقريته ، وأخيراً دعيت فدخلت القاعة ووقفت على بعد خطوات من درجافين وأسمعت الحضور قصيدتى (ذكريات القرية القيصرية) . . إننى لعاجز عن وصف حالتى النفسية وقتئذ ، فلما بلغت الأبيات التى أذكر فيها اسم درجافين تهدج صوتى ، ونبض قلبى نبضات الطرب والفرح ، ولا أذكر كيف أنهيت قراءتى ، وإلى أين هرعت ، لقد كاد الشاعر الشيخ يطير من الابتهاج فطلبنى ليعانقنى ، فبحثوا عنى لكنهم لم يعثروا علىّ .

لقد نمت مواهب بوشكين الأدبية بتأثير مطالعاته المستمرة لما تخطه طليعة مفكرى الغرب وفى مقدمتهم فولتير ، فاستوعب الآداب الأوروبية الكلاسيكية ، وآداب معاصريه من كتاب الروس وغير الروس ، وخاض ميدانى الأدب والشعر ، فلفت أنظار أدباء يكبرونه سناً أمثال كارامزين[١٤] وجوكوفسكى[١٥] ، وكانوا يعاملونه معاملة الصديق للصديق حتى وقت أن كان طالباً فى معهد القرية القيصرية .

ولما كان بوشكين يطلب العلم عمد إلى أخذ مكانه فى المعترك الأدبى ، فانتظم فى جمعية (أرزاماس) الأدبية ، وهى جمعية ألفها كل من كارامزين ، وجوكونسكى ، وباتيوشكوف[١٦] وغيرهم ، وكانت غايتها إصلاح اللغة الأدبية الروسية ، وأوربة شكل الأدب الروسى ، واستبدال اللغة المقعرة ، المصطنعة ، الغامضة ، بلغة سهلة ، قريبة من متناول الشعب ، على نقيض ما كانت ترمى إليه (جمعية محبى الأدب الروسى) التى كان يرأسها الأميرال شيشكوف[١٧] فهى جمعية كانت تدعو إلى إبقاء القديم على قدمه وتنظر إلى الأدب نظرة خيالية عقيمة ، وكان بين (أرزاماس) و (جمعية محبى الأدب الروسى) التى تعرف أيضاً بـ (بسيدا)

عراك طاحن اصطبغ لدرجة ما بالسياسة المحافظة والمجددة .

اجتاز بوشكين نطاق المعهد فى مداركه ، وراح ينظر إلى يوم الانطلاق بلهف شديد ، ولعل رسالته التى بعث بها إلى صديقه فياز يمسكى أصدق صورة عما كان يحس به فى ذلك الحين . كتب لصديقه يقول : « لم أشعر بملل قط من حياة المعهد مثلما أشعر اليوم ويقينى أن الوحدة هى فى الواقع أمر سخيف على الرغم من أنف الفلاسفة والشعراء الذين يدعون أنهم يتعشقون حياة القرية ، ويفرون إلى حيث السكينة والهدوء . حقاً أن أوان تخرجنا من المهد آخذ بالاقتراب ، لقد بقيت سنة واحدة فقط ، ولكن أواه . . سنة كاملة من زائد وناقص ، وصواب وخطأ ، وعال وممتاز ، وتوبيخ وعقوبات . . سنة كاملة من التثاؤب على مقعد الدراسة ، إنه لأمر مروع ، ومن الكفر حجز الفتى فى بيت مغلق الأبواب » .

وفى صيف ١٨١٧ حل اليوم المرتقب فانطلق بوشكين مع زملائه من المعهد ، وأخذ يعدو باسطاً ذراعيه يستقبل الحياة بكل ما يكتنفها من غموض وأسرار .

فى عاصمة القياصرة

كانت العادة المتبعة فى روسيا القديمة إسناد وظائف شكلية فى دوائر الحكومة لأبناء الأشراف والأسر صاحبة النفوذ بقصد المظهر وشغل المركز لا غير ، فلما تخرج بوشكين فى معهد القرية القيصرية أسندت إليه أيضاً وظيفة فى وزارة الخارجية الروسية فكان مثل باقى زملائه يثبت فيها وجوده يومياً وما أن تنتهى ساعات العمل المقررة حتى يفر إلى مجتمعات بطرسبورغ فيرتاد أنديتها الأدبية والعلمية ، ويغشى مراقصها ، ومراسحها ، ويغازل ، ويعشق ، ويبارز من أجل الحب والجمال الفتان ، وكيف لا يكون كذلك وهو الشاب الذى أعتق من معهد صارم القوانين قضى بين جدرانه ست سنوات على التوالى .

غير أن عبث الأوساط العليا فى العاصمة الروسية لم يحل دون بوشكين وقيامه بواجباته الاجتماعية والسياسية ومواصلة دراساته العلمية والأدبية . ومما هو جدير بالذكر أن عدداً كبيراً من أبناء أشراف الروس كانوا ينزعون مثل بوشكين إلى التجديد ، وكان

منهم من هو منتظم فى جمعية الدسمبريين الخفية التى كانت تستهدف الغاء القيصرية أو تحديد سلطانها والقضاء على حق استرقاق[١٨] الفلاحين .

فكثير من أصدقاء بوشكين ورفاقه ، ونخص منهم بالذكر بوشين كانوا منخرطين فى سلك الحركة الدسمبرية ويعملون على نشر أفكارها فى كل انحاء روسيا ، أما الشاعر نفسه فلم يكن عضواً فى هذه المنظمة مع أنه كان يساعدها بأشعاره ويعطف عليها بأقواله ، لكنه انضم فيما بعد إلى جمعية أدبية يشرف عليها الدسمبريون إشرافاً غير مباشر وقد أطلقوا عليها اسم (جمعية القنديل الأخضر) وكانت ترمى إلى بث أفكار سياسية معينة فتعقد لأعضائها اجتماعات تحمل فيها على النظام القيصرى وتنتقده انتقاداً مرّاً ، وتعلل الآمال بالتجديد المقبل .

عُرف بوشكين فى أوساط الدسمبريين بأنه الشاعر المبشر بمثلهم العليا ، وقد وضع لهم فى سنة ١٨١٧ (نشيد النهضة) تغنى فيه بالحرية السياسية التى أوحتها له ظروف أيامه ، وأعرب عمّا تكنه نفسه من أمان إصلاحية . لقد كان الشاعر من أنصار الملكية الدستورية المحدَّودة الصلاحية ، وكان يمقت كل أنواع الاستبداد

إن كان مصدره الحاكم الفرد كالقيصر ونابليون وأشباههما ، أو متطرفو الجمهورية كيعاقبة[١٩] الثورة الفرنسية ، فالكل فى نظره مستبد بقطع النظر عن الأدوار التاريخية التى بعثت هؤلاء وفرضت أولئك .

وكتب صاحب الترجمة قصائد وشذرات سياسية عديدة هى فى الظاهر حملات على قياصرة الرومان وجورهم ، وعلى نابليون وعسفه ، ولكنها كانت ترمى فى الواقع إلى الطعن فى القيصر ونظامه ، وكانت تنسخ سراً ، وتتناقلها آلاف الأيدى ، حتى أنه لم يبق فى روسيا شخص واحد يرنو إلى الحرية إلاّ ونقلها وقدمها لغيره ، وكان الدسمبريون فى طليعة المقبلين عليها ، والعاملين على إيصالها إلى كل زواية من زوايا بلاد الروس الشاسعة الأطراف .

ووضع بوشكين فى تلك الأثناء روايته الشعرية (روسلان ولودميلا) وهى أول أثر أدبى كبير له ، فجاءت لا لغو فيها ولا غموض خالية من أى شعور مصطنع وحساسية مختلقة ، تلك الخصائص التى اتصف بها الأدب الكلاسيكى المزيف . فرواية (روسلان ولودميلا) هذه إن دلت على شىء فانما تدل على نبوغ بوشكين ونزوعه إلى المذهب الواقعى فى الأدب ، وبراعتــه فى وصف

الشخصيات الخيالية مع بساطة فى اللغـة وسلامة فى الأسلوب .
وما أن صدرت تلك الرواية حتى تخاطفتها الأيدى وسارع الشاعر
جوكوفسكى فقدم رسمه لبوشكين وكتب عليه : « إلى التلميـذ
الفائز من المعلم المغلوب على أمره . بمناسبة اليوم الكبير الذى أنهى
فيه رواية (روسلان ولودميلا) » .

إلا أن أنصار المدرســة القديمة فى الأدب الروسى حنقوا جداً
على بوشكين لإطلاق يده فى سرد الأساطير الروسية ، وتبسطه
فى روى قصص أشخاصها من أمراء الروس وأبطالهم ، ومما قاله
ناقد مجلة (الرسول الأوروبى) بهذا الصدد : أن جهد بوشكين
فى جمع القصص والحكايات الروسية شبيه بجمع القطع النقـدية
القديمة . . وان جعل أسافل الناس يتحدثون إلينا عن الأخلاق
والآداب ، والمثل العليا ، هو أمر لا يستساغ بتاتاً ، فتصوروا بالله
عليكم فلاحاً بلحيته الطويلة ، متدثراً بفروته الواسعة ، محتـذياً
نعلاً من الصوف السميك ، يلج ندوة الأمراء فى موسكو ،
ويعتلى المنصة ويصرخ فى وجه الحضور بأعلى صوته : مرحاً أيها
الأولاد ! . . أتسرون حقاً بمنظر هذا المهرج المخادع ؟ . »

كثر اللغط حول بوشكين فى بطرسبورغ ، وانتشرت الشائعات

بصدد قصائده وشذراته ، واشتد الأخذ والرد فى روايته (روسلان ولودميلا) فبلغ ذلك كله مسمعى القيصر ، وإذ برعود الويلات والمصائب تقصف فوق رأس الشاعر ، فيستدعى للمثول بين يدى حاكم بطرسبورغ العسكرى (ميلورادوفتش) الذى بلغه أن مولاه أمره باتخاذ إجراءات صارمة ضده لنشره قصائد مخلة بالأمن ، فأفاده الشاعر أنه أحرق جميع مسودات قصائده الممنوعة ، وأنه لا توجد لدى الحاكم أية بينة تدينه ، وطلب قلماً وورقاً وكتب نص الإفادة بنفسه . فكان لسلوكه الجرىء هذا أن رق له قلب الحاكم العام ، واكتفى بنفيه إلى جنوب روسيا بدلا من سيبيريا ، على أن يكون تحت اشراف الجنرال اينزوف عميد المستعمرين الروس ، المقيم فى ايكاترينوسلاف (دنبرو بتروفسك اليوم) . .
وفى السادس من شهر أيار (مايو) سنة ١٨٢٠ كان بوشكين فى طريقه إلى المنفى .

بوشكين وبيرون

بينما كان الجنرال رايفسكى ، أحد أبطال الحرب الوطنية الروسية لسنة ١٨١٢ ، يقوم هو وأسرته برحلة فى جنوب روسيا ، مرّ ببلدة إيكاترينوسلاف فبلغه أن فى القشلاق شاعراً منفياً أتى حديثاً من بطرسبورغ ، فدفعه الفضول لمعرفة هذا المنفى فاقتادوه إلى زريبة وضع فيها سرير خشبى ، وقد استلقى عليه بوشكين يعانى آلام حمى الملاريا ، والحرمان من المعالجة الطبية ، والغذاء الضرورى ، وما أن وقعت عينا الجنرال رايفسكى على بوشكين حتى عرفه ، فتأثر لحاله وسعى تواً لدى الجنرال إينزوف سائلاً إياه السماح له بضم بوشكين إلى أسرته وأخذه معه إلى القوقاس والقرم ، و بعد لأى وافق العميد على ذلك فرحل الشاعر مع الجنرال رايفسكى وأسرته المؤلفة من زوجته وابنيه الشابين نيقولا نيقولايفتش رايفسكى[٢٠] ، والكسندر نيقولايفتش رايفسكى[٢١] وابنتيه الصبيتين ، وتوجهوا كلهم إلى مناطق المياه المعدنية فى القوقاس ، وأقاموا بجوارها إلى أن زالت الحمى عن بوشكين تماماً . وكتب

الشاعر فيما بعد متذكراً ذلك المكان بقوله : « .. وأقمنا مدة بجوار ينابيع حارة يتصاعد منها البخار ، وتسيل مياهها من منابعها فى الجبل فى اتجاهات مختلفة تاركة آثاراً بيضاء وحمراء ، وكنا نغترف الماء الساخن فى أوعية خشبية وزجاجية ونشربها ، فتفعل فينا مفعولا سحرياً مدهشاً » .

ثم انتقلت أسرة رايفسكى مع بوشكين إلى القرم فمكثوا فى بلدة غورزوف مدة ثلاثة أسابيع ، وفى تلك الأثناء أخذ بوشكين وأبناء رايفسكى يدرسون اللغة الانكليزية ويتعرفون إلى مؤلفات الشاعر الانكليزى بيرون الذى ذاع صيته وقتئذ فى جميع أنحاء أوروبا .

لقد تركت أيام القرم فى نفس بوشكين ، وهو فى كنف أسرة رايفسكى ، أثراً عميقاً ، فكتب إلى أخيه الأصغر (ليف) يقول : « إن أسعد فترات حياتى هى التى قضيتها فى كنف أسرة رايفسكى ، إننى أحببت فيه رجلاً ذا ذهن نير ، ونفس متواضعة نبيلة ، إنه صديق أمين ، لطيف المعشر ورب بيت مرح ، أما ابنه الكبير فمستقبله باهر وابنه الثانى شعلة ذكاء ، أما ابنتاه فهما اللطف المجسم ، والأخلاق الممتازة ، يضاف إلى هذه

الأسرة الطيبة وجود سماء صافيه جميلة ، ومواقع طبيعية رائعة تملأ العين والقلب : جبال شاهقة ، وحدائق غناء ، وبحر صاخب . . »

وحدث ما لم يتوقعه بوشكين إذ انتقل الجنرال اينزوف المسؤول عن الشاعر ، من ايكاترينوسلاف الى كيشينيف عاصمة بسارابيا التي ضمت وقتئذ الى روسيا ، وكيشينيف هذه مدينة جميلة ، وسكانها مزيج من مختلف الجنسيات بينهم الملدافيون ، واليونان والأتراك ، والبلغار ، والروس وغيرهم ، ومن حسن حظ بوشكين أن يكون الجنرال اينزوف مثل الجنرال رايفسكى طيب القلب ، أبوى العاطفة ، فلم يرهق بوشكين فى الأعمال الإدارية وكان يكثر من منحه الاجازات ، ولم يحل دونه واشتغاله بالأعمال الأدبية التى يتعشقها . . وبذا قضى بوشكين فى كيشينيف حياة منوعة وعاصفية فى آن واحد ، فكانت له وقائع مع بعض الأسر الارستقراطية لم تحل إلا بتدخل الجنرال اينزوف ، ومن طريف ما حدث لبوشكين إبان إقامته فى كيشينيف أنه اتصل بجماعة من النور الرّحل ، وتجول معهم فى جميع أنحاء بسارابيا ، فاقتبس من حياتهم مواد غزيرة لمؤلفاته الشعرية .

لقد قام بوشكين فى كيشينيف بقسط أوفر من اللهو والعبث ، لكنه كان كسابق عادته لاينقطع عن المطالعة والكتابة ، وفى جملة الكتب التى طالعها كتاب (السلام الخالد) للقس سان پيير ، وقد جاء ذكر هذا الكتاب فى رسالة كتبتها كاترينا أورلوفا ، إحدى بنات الجنرال رايفسكى ، وزوجة الجنرال أورلوف حاكم كيشينيف ، قالت فى مجرى حديثها عن بوشكين والكتاب المذكور : « . . فأقبل بوشكين على كتاب (السلام الخالد) للقس سان پيير وجعله فرساً له لايتحول عنه قط . . وخلاصة هذا الكتاب أن الدولة تستحدث دائماً وهى فى استحداثها هذا تثبت أركان السلام العام والطمأنينة الخالدة » .

وإذا كان بوشكين يقيم فى كيشينيف كان يتتبع بدقة تامة مجرى الشؤون الأوروبية ، وتطورات السياسة الروسية الداخلية ومما ساعده على ذلك أن الجنرال أورلوف حاكم كيشينيف كان عضواً فى جمعية الدسمبريين ، يبث لها الدعاية فى وساط قواته مباشرة ، وهو الذى عرف الشاعر الى (پيستل [٢٣]) زعيم الدسمبريين وقت أن زار تلك المدينة متفقداً منظمات الجنوب ، فذكره

بوشكين فيما بعد قائلا : « إن بيستل هو أحد الأدمغة النادرة التى عرفتها فى حياتى » .

كان الدسمبريون فى روسيا الجنوبية قد جعلوا من كيشينيف قاعدة لهم ، واعتادوا أن يعقدوا اجتماعاتهم السنوية فى قرية كامنكا الواقعة بالقرب من العاصمة بداعى الاحتفال بعيد ميلاد فاسيلى لفوفتش دافيدوف أخ الجنرال رايفسكى من أب ثان ، المقيم فى تلك القرية ، وكان بوشكين يتردد على هذه القرية ويشترك فى تلك الحفلات السنوية وهو يجهل حقيقة أمرها مع شعوره بأن هناك شيئاً خطيراً يخفيه عنه أصدقاؤه ، وما كان ذلك إلا ليزيده فضولية وتشوقاً لمعرفة ما وراء الاكمة ، والواقع أن الدسمبريين كانوا يتحاشون ادخال بوشكين فى منظماتهم كى لا يتعرض الى الأخطار المتوقعة وهو كنز الأمة الروسية الذى لا يفرط به قط .

ولعل المذكرات التى وضعها (يا كوشكين) الدسمبرى بصدد أحد اجتماعات كامنكا تلقى بعض النور على ما كان يكنه بوشكين من شعور نحو تلك المنظمة التى سجلت لنفسها صفحة خالدة فى التاريخ الروسى ، قال يا كوشكين : « . . قضينا الليل

كله فى سمر عند فاسيلى لفوفتش ، وكان الجنرال رايفسكى حاضراً ينظر إلى ما يجرى حوله نظرة الفاحص المستغرب ، فلم يقتنع مثلاً بأن الصدفة وحدها هى التى قادتنى الى تلك القرية ، ولما كان يهمنا معرفة ما إذا كان الجنرال يحيط بأمرنا علماً أم لا قررنا استدراجه للاطلاع على رأيه عن طريق جلسة وهمية نعقدها للحال . . وفعلا أعلنا افتتاح الجلسة وانتخبنا الجنرال رايفسكى رئيساً وبعد لف ودوران فى مختلف المواضيع طرح أحدنا السؤال التالى : كم من الفائدة بمكان لو تألفت فى روسيا جمعية خفية ؟ . . ثم أبدى رأياً مهلهلا فى الموضوع لا يفهم منه شيئاً ، فبدأت المناقشة واشتد الجدل ، فنهض بوشكين وألقى كلمة حماسية دلل فيها على الفوائد المتوخاة من جمعية خفية تنتشر فى كل أنحاء روسيا ، ثم تكلمت أنا فى الموضوع وأبديت عكس الرأى .. وإذا بالجنرال رايفسكى رئيس الجلسة يعارضنى فى رأيى ويعدد الأسباب الموجبة لقيام جمعية خفية ، وأن مستقبلها باهر ، وستلاقى نجاحاً عظيما . . فقلت له : لا ريب بأنكم غير جادين فى وجهة نظركم هذه وتأكيداً لذلك أطرح عليكم هذا السؤال : لو فرضنا أن جمعية خفية تألفت فى هذه الساعة فهل تنضمون

إليها ؟ .. قال : بكل قواى أنضم إليها .. قلت : إذن ها كم يدى !.
فمد يده وصافحنى بحرارة ، غير أننى قهقهت وأفهمته أن حديثنا إن
هو إلا مجرد مزاح .. فانفجر كل من كان حاضراً بالضحك ما خلا
بوشكين الذى كانت أمارات الانفعال بادية على محياه لاقتناعه
بعد سماعه هذا الحوار أن الجمعية الخفية إما أن تكون فى حيز
الوجود أو أن تأليفها قد تم فى تلك الليلة ، لكنه لم يكد يسمع
النتيجة وما تبعها من نكت وضحكات حتى انتصب محمر الوجه
والدمع يترقرق فى عينيه وقال : إننى الآن أتعس من أى وقت
مضى . . لقد رأيت حياتى تتسامى ، وشاهدت هدفاً فى الأفق
أنشده ، واذا بذلك كله سراب ، ومداعبة مشؤومة » .

واتصل بوشكين فى كيشينيف بالزعيم الوطنى اليونانى إپسيلانتى
قائد الحركة الثورية اليونانية لأوائل القرن الماضى ، وتصادق
أيضاً مع حسناء يونانية تدعى (كاليپو پوليخرونى) عشيقة
اللورد بيرون وقت أن كان يقاتل فى صفوف المحاربين من أجل
استقلال اليونان الوطنى . . فإپسيلانتى من جهة وپوليخرونى
من جهة أخرى عملا على اقتناع الشاعر بعدالة القضية اليونانية
فتحمس لها ورغب بالاقتداء ببيرون ، على أن عوامل شتى حالت

دون فراره والالتحاق بالثوريين اليونانيين ، فكتب آنئذ معلقاً على المسألة اليونانية ما يلى : « إن جميع اليونانيين يطمحون إلى تحقيق أمنية واحدة وهى — استقلال الوطن ! . . ففى كيشينيف وأوديسا يشاهد المرء جماعات من اليونانيين واليونانيات يبيعون كل ما يملكونه بثمن بخس ليبتاعوا به السيوف والبنادق والمسدسات ، وكلهم يتحدث عن ليونيد (٢٣) وثيميستوكل (٢٤) هؤلاء هم أتباع إپسيلانتى السعيد » .

ومع اهتمام بوشكين وهو فى منفاه فى كيشينيف بحركات الدسمبريين الروس ، والثوريين اليونانيين ، كانت لا تفوته أنباء النهضات الرامية إلى الرقى والتقدم فى ايطاليا ، واسبانيا ، والمانيا ، وفرنسا ، والبرتقال ، فتشجعه هذه كلها مجتمعة على المضى فى اعتقاده بضرورة تحرير الشعب الروسى من ربق الاستبداد القيصرى ، وتحفزه أكثر فأكثر إلى نظم القصائد والشذرات التى يتغزل فيها بالحياة والموت من أجل الاعتاق ، ونخص من هذه القصائد السياسية بالذكر قصيدة (الخنجر) ، غير أن مجرى الحوادث فى روسيا ، وأوروبا ، كان على نقيض ما توقعه بوشكين فأصيب لأول مرة فى حياته الوطنية بخيبة أمل وغدا يظن بأن

قوى الاستبداد أشد بأساً من قوى الشعب فطلع بمجموعة من القصائد يعكس فيها شعوره هذا وأبرزها قصيدة : يا زارع الحرية فى الصحراء ! ...

وبينما هذه الحوادث تتوالى تباعاً قلب الدهر صفحة جديدة فى سفر بوشكين إذ تم نقل الشاعر إلى أوديسا ليكون تحت إمرة الحاكم العام الجديد الكونت ڤورونتسوف ، وهو رجل على نقيض الجنرال إينزوف تماماً ، كان يعتد بوجاهته وأرستقراطيته، ويعامل من هم فى خدمته باحتقار وازدراء طالباً منهم الخنوع والتزلف المطلقين ، ولم يستثن منهم أحداً حتى الشاعر نفسه ، إلا أن بوشكين مع كونه موظفاً بسيطاً لدى الكونت ڤورنتسوف، كان على بينة من أنه شاعر عظيم ، وأن عليه أن يعتز أيضاً بأسرته التى حملت ألقاب الشرف مدة ستمائة سنة ليقاوم سلطان الوجاهة والثروة فى بيئة لا تقيم لسلطان الشعر حرمة وكرامة .

توترت العلاقات بين بوشكين وڤورنتسوف ، ومما زاد الطين بلة أن الحاكم أخذ يتوجس خيفة من الشاعر على زوجته الحسناء (اليزابيت كساڤريڤنا) ، فنقم عليـه ، وعمل كل ما فى وسعه

ليحط من مكانته ، حتى إنه أرسله مرة ليكافح الجراد مع رهط من العمال وطلب منه أن يقدم تقريراً عن أعماله فى هذه الحملة . . وكانت الحملة ، وكان التقرير فى هذه الكلمات :

« حضرة الكونت ڤورنتسوف .

« طارت الجرادة ثم هبطت ، ثم طارت ثم هبطت ، ثم أكلت ، « ثم طارت ! . . مع الاحترام . . . بوشكين »

وكان هذا « التقرير » التهكمى فاتحة لحملات شعرية شنها الشاعر على الكونت فضاق به هذا ذرعاً وكتب إلى بطرسبورغ يطلب نقل بوشكين إلى مكان آخر ، وحدث فى تلك الآونة أن التقطت السلطات الروسية رسالة لبوشكين يشرح فيها رأياً فى عدم خلود الروح اقتبسه من سائح انكليزى تعرف اليه صدفة فى أوديسا ، وما أن اطلع القيصر الكسندر الأول على هذه الرسالة، حتى أسرع فى طلب الكونت ڤورونتسوف وأصدر أمره باخراج بوشكين من الخدمة ، ونفيه إلى قرية ميخايلوفسك ، حيث وضعه تحت إشراف المدينة والكنيسة فيها .

لم يدع بوشكين أيام منفاه فى الجنوب تذهب هدراً ، إذ استغلها للإنتاج الأدبى أحسن الاستغلال ، فوضع الكثير من

القصائد الغنائيـــة وأبرزها : (الأسير القوقازى) ، و (نافورة باغشى سراى) و (النور) ، وشرع فى كتابة روايته الشعرية الـكبرى (أوجين أونيغين) ونظم قصيدة (غابريليادا) وهى قصيدة هزلية مطولة لم يسمح بنشرها إلا بعد مرور قرن من الزمن لما كانت تنطوى عليه من آراء هرطقية .

وأولع بوشكين فى منفاه أيضاً بمطالعة مؤلفات بيرون ونعته فى إحدى قصائده بسلطان فكرجيله الذى لا ينافسه منافس ، وقد تأثر به إلى حد كبير كما تأثر به الأدب الأوروبى بأسره فى ذلك الحين .

لقد أعرب بيرون فى شعره عن خيبـــة الآمال التى عقدها خيرة رجال أوروبا ونسائها على تحسين الحالة الاجتماعية إثر الثورة الفرنسية الكبرى ، كما عكس فى شعره مظاهر الاحتجاج الصارخ على الطغيان الذى ساد القارة الأوروبية فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، ودافع عن حقوق الفرد ، وكان يعطف العطف كله على شعوب شرقى أوروبا فأكثر من وصف آدابها وعاداتها وتقاليدها ، وأيد نضال الشعوب المضطهدة منها ، وكفى به فخراً أنه استشهد فى سبيل حرية اليونان واستقلالها .

غير أن احتجاج بيرون على الطغيان طُبع بطابع الغموض والإبهام ، فبدلا من أن ينتقد مظاهر تاريخية معينة من مظاهر الجور والإرهاق ، جعل الفرد ضد المجتمع جملة ، والفردية حسب رأيه تحمل لواء الحرية بينما المجتمع يمثل الظلم والاستبداد . . فنزوع بيرون هذا خاطىء من أساسه وقد أدى به إلى الوقوع فى الفردية الضيقة فجاء أبطاله متكبرين أنانيين ، يستصغرون غيرهم من الناس ، ويشعرون بميزة ترفعهم عنهم . . لقد كان بيرون متشائماً ويعتقد باستحالة تسوية الخلاف بين الفرد والمجتمع تسوية مرضية ، وبالتالى استحالة بلوغ السعادة فى الحياة الدنيا .

أما بوشكين فقد أتقن الناحيــة الاحتجاجية التى اتسم بها شعر بيرون ، ويظهر ذلك واضحاً من قصائده المستهلة من حياة أهل القوقاس ، والقرم ، والمولداف ، فكان أبطاله كذلك معتزين بأنفسهم ، منعزلين فى حياتهم ، يائسين من وسطهم . لكن الفرق بين بوشكين وبيرون أن الشاعر الروسى متفائل يرفع عقيرته محتجاً على المساوىء الاجتماعية باسم السعادة للناس أجمعين ، وما أنانية أبطاله اليائسين إلا أنانية سلبية لا إيجابية . ونضرب مثالا على ذلك قصيدته (النوَر) التى حمل فيها على بطله أليكو

متهماً إياه بأنه يريد الحرية لنفسه فقط ، فـ (أليكو) هذا أنانى إلا أن بوشكين لم يغتفر له أنانيته وعنفه عليها .

والشاعر الروسى يستنكر أية سعادة للفرد إذا كانت قائمة على حساب شقاء غيره من الأفراد ، كما أنه يعترف بوجود العالم الواقعى المستقل عن مدارك الناس ، والذى يفعل فيهم فعله من حيث يدرون أو لا يدرون . ويقول أيضاً أن كل إنسان يشغل المكان المخصص له فى المجتمع ، وأن لا سعادة للمرء إن لم يكن مندمجاً مع غيره من البشر ، وفى هذا المضمار يميل بوشكين إلى شكسبير الذى يقر قيم العالم الخارجى ، ويفضله على بيرون .

كتب بوشكين مرة إلى الكسندر نيقولايفتش رايفسكى يبدى له رأيه فى شكسبير فقال : « أى إنسان شكسبير هذا ؟ . لقد قرأت مؤلفاته كلها فكدت أفقد صوابى . . إن بيرون صغير إذا ما قورن بشكسبير ، والسبب فى ذلك أن بيرون لا يملك سوى سجيته الخاصة فهو يوزعها بين أبطاله كما يشاء ، فمنهم من يخلع عليه الاعتزاز ، ومنهم من يبث فيه الكراهية ، ومنهم من يطبعه بطابع السوداوية وهلم . . أفهذه هى المآسى ؟ . . أنصحك بأن تقرأ شكسبير ! » .

وصفوة القول إذا ما طالعنا قصائد بوشكين الرومانطيقية البيرونية التى نظمها فى جنوب روسيا نراها تمتاز على شعر بيرون بكونها تقوم على الإقرار بقيم كل إنسان على حدة ، وتهتم بالمجموع كما تهتم بالفرد ، وتستمد مادتها من حقائق الحياة المحيطة .

بوشكين والمذاهب الأدبية

يقع إقليم پسكوف على بُعد مئتى كيلومتر من جنوب لننغراد (بطرسبورغ سابقاً) الغربى ، وهو إقليم تكثر فيه الأحراش ، والمستنقعات ، والأراضى الزراعية ، وتنتشر فيه القرى الروسية المبنية بيوتها من قطع الأشجار الضخمة المثبتة بعضها إلى بعض بالمسامير الخشبية ، وحبال الليف ، فى هذه المنطقة تقوم قرية ميخايلوفسك ، وهى عبارة عن مجموعة من البيوت القروية ، ومصايف لبعض الملاّكين ، وكنيسة يسكن فى أطرافها قسيس القرية وبعض المتعبدين والمتعبدات .

فالى هذه القرية نفى الشاعر ، وقد أمر حاكم پسكوف أن يقيم بوشكين فى بيت أبيه وأن يوضع تحت إشراف سلطتين مدنية وكنيسية ، الأولى يتولاها أبوه ، والثانية يتولاها قسيس القرية .

وفى التاسع من شهر آب (أغسطس) سنة ١٨٢٤ هبط المنفى القرية فوجد أسرته المصطافة بانتظاره ، وقد ابتهجت بلقائه بعد طول الغياب ، فأقامت له الأفراح والليالى الملاح ، ولكن ما هى إلاّ أسابيع حتى انعكست الآية وأخذ الشاعر يحس شيئاً فشيئاً بمضايقة أبيه له ، وقد بلغت العلاقات فيما بينهما من سوء التفاهم والتوتر إلى درجة حادة جداً جعلت الشاعر يفكر بتوجيه طلب إلى السلطات يسألها فيه أن تزجه فى برج قلعة پسكوف بدلاً من إبقائه تحت إشراف أبيه ومضايقاته المتواصلة ، ولحسن حظ بوشكين ان انتهت فترة الاصطياف ورحل والده مع أسرته إلى بطرسبورغ تاركاً له مربيته (آرينا روديونوفنا) ، ومكلفاً ملاّكاً آخر أمر مراقبة حركاته وسكناته .

كان لانتقال بوشكين الفجائى إلى ميخايلوفسك مايبعث فى نفسه الآلام المبرحة ، أين هو من جنوب روسيا حيث الطبيعة الخلاّبة ، والحياة السياسية الصاخبة ؟ .. ها هو يرى نفسه سجيناً فى قرية نائية تغمرها الثلوج أشهراً عديدة من أشهر السنة ، فينشل فيها كل معالم الحياة شللاً تاماً فلا يشاهد المرء فيها إلا أشباحاً بيضاء تترك هنا وهناك ، ولا يسمع إلا رنين أجراس

خيول الزحافات ، وقرع ناقوس الـكنيسـة يدعو الحزانى والمتضجرين إلى الصلاة .

كتب بوشكين يصف عزلته هذه فقال : « سآمة ضارية تلتهم كيانى التافه هذا ! . . فكل ما يذ كرنى بالبحر يبعث فى الأحزان ، وخرير الفوارة يجلب لى الآلام ، أما السماء الصافية فتسيل الدمع من مآقى . . السماء فى ميخايلوفسك كالحة ، وقمرها كالشلجم تماماً ، وفيما يختص بجيرانى فقد ابتعدت عنهم منذ البدء مع أنى أتمتع عندهم بسمعة (أوجين أونيغين) — بطل روايته الشعرية الـكبرى — ، أنى نبى فى موطنى ! . . غير أن الضجر كاد يقتلنى ، وان ربة الشعر تفتقر إلى الحرارة ، فالقصائد لا تسير قدماً ! » .

وبلغه فى تلك الأثناء نبأ الفيضان الـكبير فى بطرسبورغ لسنة ١٨٢٤ فاضطرب له كثيراً ، وكتب لأخيه (ليف) يقول : « لقد تألمت لهذا النبأ ، ولك أن تساهم فى مساعدة المنكوبين مما تجمع لديك من بيع كتاب (أونيغين) وأرجو أن يكون ذلك دون ضجة لا شفهية ولا خطية » .

إنها لصورة رائعة حقاً ، فالشاعر بالرغم مما كان يعانيه من نكبة

النفى ، ووحشة العزلة ، والانقطاع عن العالم الخارجي ، لم ينس مواطنيه الذين نكبوا بالفيضان فسأل أخاه أن يساهم فى أسعافهم بماله الذى جناه من قلمه والذى هو فى أمسّ الحاجة إليه .

وإذ كان الشاعر يعانى آلام السجن المزدوج ، سجن القرية ، وسجن الثلوج ، فاجأه صديقاه دلفيج و بوشين بزيارة طار قلبه لها فرحاً ، وانفرجت أساريره ، وشعر بأن حملاً ثقيلا قد زال عن صدره .

وقد وصف بوشين زيارته لبوشكين هذه فى مذكراته فقال :

« سارت بنا الزحافات الساعات الطوال فى صحراء من الثلوج ، ثم أشرفنا على غابة فاجتزناها ، ثم مررنا بهضاب بيضاء ، ودخلنا فى طرق متعرجة ملتوية ، ثم عطفنا عطفة شبه مستديرة وعلى حين غرة اقتحمت خيول الزحافات بوابة بيت بوشكين بعنف واصطدمت بعتبة الباب الداخلى ورست ، ولشدة عجبى رأيت بوشكين ، وقد هالته تلك الصدمة ، يقفز إلى الباب وهو فى قميص النوم ، شبه عارى الجسم ، حافى القدمين ، فلم يشعر بوطأة البرد الثلجى ، كما أننى سهوت عن دثره بمعطفى ، فتعانقنا والثلوج تتساقط علينا بكثرة ، فسالت دموع الفرح ، وطال العتاب ،

ولم ننتبه إلى ما نحن عليه إلا بعد أن أخذت مربيته العجوز آرينا تدفعنا إلى الداخل حيث الموقد والشاى . لقد أقمنا فى ضيافة بوشكين أياماً تسامرنا فيها وتبادلنا الذكريات ، واستمعنا إلى نتاجه الجديد ، وتركناه واعدين إياه بالسعى لدى القيصر لإلغاء أمر نفيه » .

لقد أبدى بوشكين إبان إقامته فى ميخايلوفسك اهتماماً عظيماً بالتصانيف الشعبية الروسية ، وبكيان الفلاحين الروس ، فكان يستمع إلى أغانى القرية وأقاصيصها ويتدثر بلباس الفلاحين فى أيام الآحاد ، ويختلط بهم فى الأسواق والكنائس ، ويتحدث اليهم ، ويصغى إلى لهجاتهم ، ويستفسر عن أحوالهم ومعاشهم غير آبه لاستنكار أعيان البلدة سلوكه المستغرب هذا :

ومع أن الحياة فى ميخايلوفسك كانت مجلبة للسآمة والضجر ، لم يقعد الشاعر عن النظم والتأليف يوماً واحداً لاعتباره العمل الفكرى ملاذاً يهرع اليه تخلصاً من وطأة الأحزان المستولية على نفسه .

استحضر بوشكين كتباً كثيرة إلى القرية ، وكان يتتبع المناقشات الأدبية التى تدور فى العاصمة بانتباه زائد ، فيعلق عليها

فى رسائله إلى أصدقائه ، وفى تلك القرية أتم وضع قصيدته (النَّوَر) ، وكتب أربعة فصول من روايته الشعرية المسرحية الكبرى (أوجين أونيغين) ، وألف مأساة (بدريس غودونوف) التاريخية ، ونظم قصيدة (الغراف نولين) الهزلية ، وقد نحا الشاعر فى جميع هذه الروايات والقصائد منحى واقعياً جاعلا رائده وصف الحقائق المنبعثة من صميم الحياة ، ففى (أوجين أونيغين) قدم للقراء صوراً من حياة أشراف روسيا ، وأبرز وجهائها ، ونمط معيشتهم وآدابهم ، وما اتسمت به الطبيعة الروسية جملة

كان بوشكين أثناء إقامته فى قرية ميخايلوفسك يأخذ قسطه فى جميع المناقشات الأدبية التى تدور فى مجلات موسكو و بطرسبورغ حول مختلف الاتجاهات فى الأدب من كلاسيكى ، وعاطفى وواقعى ، وكان يتحمس للاتجاه العاطفى الروماطيقى معتبراً إياه بأنه ينفى سائر الأساليب الضيقة وغير الطبيعية التى يقوم عليها الأدب الكلاسيكى المزيف ، ويمنح الكاتب حق التصرف بالفكرة الموضوعة أمامه ، ويطلق يده فى معالجتها وفاقا لما توحيه مشاعر النفس الحرة ، ومع تحمس الشاعر للعاطفية ومزاياها رأى فيها عيباً جوهريا أبعده عنها وقربه من المذهب الواقعى ، فالعاطفية

تتمسك بالمثل العليا الروحية المجردة، وتتعلق بأهداب الخيال، محتقرة الحياة المادية العادية ، إنها توجد لذاتها عالماً مختلقاً طو بياً مدعية أنه أسمى من الحقائق الزمنية ، و بذا تبتعد إلى حد ما عن طبيعتى الإنسان والبيئة ، لقد لمس بوشكين هذا التناقض فى الاتجاه العاطفى ومع ذلك عمل بمقتضاه فى بعض تأليفه لاعتقاده بأنه يساعد على التحرر من قواعد قديمة جامدة مزيفة تشدد الخناق على النفس المبدعة ، ولا تفسح المجال للفن بأن يعكس فى ذاته حقائق الحاضر والماضى ، فالمذهب العاطفى فى الأدب إن هو إلا خطوة أولى نحو المذهب الواقعى .

لقد كان بوشكين يعتقد أن المسرحيات الفرنسية البلاطية ، مسرحيات كورنى وراسين ، هى ضرب من العبث لا تتلاءم وطبيعة المسرح الروسى ، وأن المآسى التاريخية الحقة هى التى لا تقتصر على تصوير النزعات الانسانية فحسب ، بل تجعل الشعب الشخص الأول فى الرواية وتعكس مراحل حياته ومصائره ولما كان الشاعر يرمى بذلك إلى إحداث تحول جوهرى فى المسرحيات الروسية ، وانقلاب فى المسرح الروسى كله ، ولّى وجهه شطر شكسبير إذ وجد فى مسرحياته الشىء الكثير من

الانطلاق ، والإخلاص للحقائق ، والأهداف السامية .

كتب بوشكين إثر وضعه رواية (بوريس غودونوف) :
« لقد هدتني دراسة شكسبير ، وكارامزين فى كتابه الكبير « الدولة الروسية » وأسفارنا القديمة إلى وضع مسرحيات للتاريخ الجديث ، وقد شرعت بهذا العمل مقتبساً عن شكسبير انطلاقه وتصويره الموقف للأمزجة البشرية ، وتوزيعه الأدوار على أشخاصه ببساطة بعيدة عن كل تكلف . ومتتبعا كارامزين فى معالجة الوقائع وترتيبها وتفنيدها أما الأسفار والوثائق فإننى حاولت بواسطتها الوقوف على لغة أهل تلك الأيام ونمط تفكيرهم . . وقد وجدت مصادر هذه الأبواب الثلاثة جمة ولله الحمد ، فهل أحسنت الاستفادة منها يا ترى ؟ . . لا أدرى ! . . وعلى كل إننى بذلت مجهوداً كبيراً ورائدى الغيرة والإخلاص ، وأقر صادقاً أن فشل مسرحياتى لما يجلب لى الأحزان ، لأننى أعتقد جازماً أن مسرحنا الروسى يتلاءم ومسرحيات شكسبير الشعبية ولا يتلاءم ومآسى راسين القائمة على تصوير عادات البلاط الملكى ونطاقه الارستقراطى الضيق » .

توخى الشاعر فى مسرحيته (بوريس غودونوف) الدقة فى

درس التاريخ الروسى ، والتحقق من صحة الحوادث الغابرة ، وقد جعل هدفه فى دراسته لاختبارات الماضى الدامية استخلاص العبر لحاضره ، فكان موضوع مسرحيته هذه الشعب والسلطة ، وخلص منها بقوله إن السلطة لن تكون مهيبة الجانب إن لم تعتمد على الرأى العام .

وفى أواخر شهر تشرين الثانى (نوفمبر) سنة ١٨٢٥ بلغت بوشكين شائعات متقطعة مفادها أن القيصر الكسندر الأول توفى فجأة وهو فى طريقه من القرم إلى تاجنروغ ، وأن أخاه قسطنطين پاڤلوڤتش اعتلى العرش مكانه ، ولكنه ما لبث أن تخلى عنه إلى أخيه نيقولا . لقد هزت هذه الشائعات نفس الشاعر فارتاح لها ، وراح يعد نفسه بالحرية العاجلة ، لأن موت القيصر المستبد ، وقيام قيصر جديد ، لا بد أن تعقبه موجة من الحريات ولا يعقل أن يكون نيقولا الأول قد جبل من نفس الطينة الجائرة التى جبل منها سلفه .

ولم يكد نيقولا الأول يعتلى العرش حتى هبت ثورة الدسمبريين فى يوم مبايعته ، أى فى الرابع عشر من شهر كانون الأول

(ديسمبر) سنة ١٨٢٥ ، فخرج الجمهور المستاء بصحبة الوحدات العسكرية المتمردة إلى ساحة مجلس الشيوخ فى بطرسبورغ ونادى الجميع بالحريات الدستورية ، غير أن القيصر الجديد لم يأبه لهذه الحركة الشعبية ، وهى أول حركة ديمقراطية روسية منظمة ، فدشن عهده بأن أمر باطلاق النار على المتمردين ، واعتقل عدداً كبيراً من زعماء الحركة وفى طليعتهم پيستل ، وبستوجيف ، وموارڤيف ، ولونين ، والأمير ڤولكونسكى ، وصديق بوشكين منذ معهد القرية القيصرية پوشين ، وكوخلبيكر ، وبعد تحقيقات دامت عشرة أشهر أصدر القيصر أمراً بتاريخ ١٣ تموز (يوليو) سنة ١٨٢٦ يقضى بشنق خمسة من زعماء المؤامرة وهم : بيستل ، وريليف [٢٥] ، وبستوجيف ، وموراڤيف ، وكاخوفسكى ، ونفى مئة وعشرين ديسمبريا آخرين إلى مجاهل سيبيريا .

طارت أنباء تلك الحوادث التاريخية إلى عموم أنحاء روسيا ، وعلم بها بوشكين فتحمس لها ، وعقد النية على أن يخرق أمر الإقامة الجبرية ويرحل إلى بطرسبورغ ليساهم فى العمل الوطنى الكبير ، لكنه أعمل الفكر فى الموضوع فعدل عن الذهاب وظل يستشف أنباء الدسمبريين ، وقد هاله خبر إعدام فريق

من أصدقائه ، فكتب فى رسالة يقول : «المشنوقون مشنوقون ، وأما إرسال مئة وعشرين شخصاً من الأصدقاء والإخوان إلى سيبيريا فهو أمر مريع حقاً» .

ومع ذلك كله لم ييأس الشاعر من عفو القيصر عنه على اعتبار أنه لم يشترك فى الانقلاب الدسمبرى ، فكتب إلى جماعة من معارفه يسألهم التوسط لدى السلطات ذات الاختصاص ، كما كتب إلى القيصر ذاته يرجوه العفو .

والواقع أن بوشكين لم يكن مسجلا فى قائمة المتآمرين ، وأن قصائده وشذراته الشعرية السياسية التى عثرت عليها السلطة بين أوراق المتهمين لم تكن لتؤلف تهمته بالعمل الانقلابى المباشر ، غير أن القيصر تريث فى العفو عن الشاعر وأوعز إلى عين من عيونه يدعى (بوشنياك) بأن يذهب إلى منطقة پسكوف بوصفه « عالماً نباتياً » ويجرى تحقيقاً دقيقاً فيما إذا كان لبوشكين أى ضلع فى حركة الدسمبريين وفى غيرها من حركات العصيان بين الفلاحين ، ولسوء حظ « العالم النباتى » أنه لم يعثر على أية بينة تدين بوشكين فعاد إلى مولاه صفر اليدين . . وهنا قرر أى نيقولا الأول على أن يسلك مع أسيره مسلكا خاصاً يقوم على

اللين والمراوغة ، فأمر بنقله الى موسكو فى يوم الاحتفال بالذكرى الثانية لتتويجه ، وفى الرابع عشر من شهر ايلول (سبتمبر) سنة ١٨٢٦ كان الشاعر فى موسكو ، وقد جىء به على عجل من ميخايلوفسك لمقابلة القيصر .

قيصر يقاوم شاعراً

اعتزم نيقولا الأول ترويض بوشكين وجعله شاعر البلاط الأول يقول القريض متغنياً بالسلطات الرسمية ، خالعاً عليها آيات الثناء والتمجيد ، وقد ظهرت هـذه النية واضحة كل الوضوح فى رسالة بعث بها القيصر الى رئيس دركه (بنكندورف) قال فيها « أن بوشكين شاب مهذب فاذا كان بحيز المستطاع توجيه قلمه وأحاديثه توجيهاً حكومياً فالفائدة من ذلك ستكون بلا ريب كبيرة ! »

وهكذا اقتيد الشاعر حال وصوله موسكو الى القيصر قبل أن يتمكن من التزيين وازالة ما علق به من وعثاء السفر ، فاستقبله عاهل الروس بابتسامة عريضة هاشاً باشاً ، وأجلسه الى جانبه وسأله فجأة : ماذا فعلت لو كنت فى بطرسبورغ فى ١٤ ديسمبر

من السنة الماضية ؟ . . فأجابه الشاعر على الفور : لو كنت فى العاصمة وقتئذ لانضممت إلى العصاة بلا تردد ! . ، فقهقه القيصر لدى سماعه هذه العبارة وربت على كتفه ، ثم استرسل فى التحدث الى جليسه مدخلا فى روعه أنه سينتهج سياسة تهذيبية جديدة ، وأن القسوة التى استعملها مع الدسمبريين لا تشكل منهجاً دائمياً وما هى إلا حادث عرضى اقتضته ظروف قاهرة ، وأن على الشاعر أن يغير موقفه السياسى ويعمل على مساعدته فى مهمته التربيوية ، واعداً إياه بأنه سيتولى بذاته أمر مراقبة كل ما يكتبه وينظمه فينقذه بذلك من مضايقات الدوائر الحكومية المختلفة .

ارتاح الشاعر للنتيجة التى أسفرت عنها هذه « المفاوضات » واعتبرها مظهراً من مظاهر العطف القيصرى ، وبدء تحول فى سياسة نقولا الأول العامة ، فخرج من لدنه وكله أمل ورجاء . وبعد دقائق معدودات من تلك المقابلة قال عاهل الروس للكونت (بلودوف) ، وهو أحد حاشيته المقربين : لقد تحدثت الآن إلى أثقف رجل فى روسيا ! .

لكن أين للقيصر أن يتفاهم مع الشاعر ويثق به ؟ . . فقد

ظلت الشكوك والظنون تنتاب نيقولا الأول فى إخلاص بوشكين له فعمد إلى اختباره وسبر غوره بأن طلب منـه وضع رسالة فى التربية القومية تكون بمثابة منهج للشبيبة الروسية الناشئة . . فرضخ الشاعر للأمر ووضع رسـالته هذه فى عبـارات مترددة توخى فيها ألا يغضب القيصر من جهة ، وألا يجعلها تتنافى مع وجهة نظره الخاصة من جهــة أخرى ، فارتأى فيها أن تكون الثقافة أساساً للتربية القومية فى حين أن القيصر كان يرى غير هذا الرأى ، وقد أعرب عنه فى كتاب خاص بعث به إلى بوشكين بواسطة رئيس دركه بنكندورف ، وهذا نصه : « .. إن قولك بجعل الثقافة والنبوغ قاعدتين أساسيتين للتقدم هو قول يؤلف خطراً للأمن العام ، ويكوّن تهمة ربما تقودك إلى حفة الهاوية ، وتنتهى بك إلى حيث انتهى الأمر بتلك القـافلة من الشباب المغرورين . . وعليك أن تفهم أن السلوك الحسن ، والخدمة المتواصلة المدعومة بالطاعة والإخلاص ، هما أفضل من الثقافة وتنوير الأذهان المجردتين .. فالشاب المطيع هو النموذج الصحيح للتربية القومية ، وليس ذلك الشاب الذى تتقاذفه أمواج العلوم والثقافات ، فعلى هذه المبادئ يجب أن تقوم التربية القومية ،

ولا إخالك إلا فهمت قصدى وأنت الشاعر اللبيب ! » .

ولمح بوشكين فى رسالته هذه بكلمة عن الدسمبريين وفشلهم قال فيها : « ولعل أولئك الناس الذين يشاطرون الدسمبريين أفكارهم قد تيقنوا الآن أن الحكومة قوية وأن قوتها هذه مادية محسوسة » غير أن نيقولا الأول لم يرتح أيضاً لهـذه العبارة التى يدعو فيها الشاعر الناس إلى الخضوع للقيصر لا لسبب آخر سوى أنه يحتكر وسائل القوة والبطش فى حين أنهم عُزل منها .

كان الشاعر فى حيرة من أمره ، لا يدرى كيف يوفق بين نزوعه إلى الحرية والتقدم ، وريبته فى حسن نوايا القيصر ، لكنه وهو الرجل المثقف نظر إلى الوضع نظرة عملية ، ووازن العلاقات القائمة بين القوى المتطاحنـة ، فوجد أن من الأجدى الإذعان للعاهل الروسى ضمن شروط معينة ، مضيفاً إلى ذلك أن بمقدوره كشاعر له مقامه فى الهيئة الاجتماعية الروسية أن يؤثر فى نفسية القيصر ويوجهه فى سبيل الخير والصالح العام ، وقد عمد بوشكين بالفعل إلى نظم قصيدة فى نيقولا الأول تحدث فيها عن الإخلاص للحقيقة ، ونشر المعارف ، وتلطيف الطباع ، ورفع لواء العدالة ، واحترام الوطن ، وختمها بالثناء عليه وتشبيهه إياه ببطرس الأكبر

لم يكن بوشكين سياسياً وإنما شاعراً تتحكم فيه الأهواء والعواطف ، فتقرب من القيصر ولسان حاله يقول : يجدر بى أن أقف إلى جانب القيصر ، وأنا الشاعر الداعى إلى التقدم ، من أن يحيط به غيرى من النفعيين و يوجهوه أسوأ التوجيه .

وكان لهذه العلاقات الجديدة بين الشاعر والقيصر أن أثارت عليه بعض النقد ، فمنهم من اتهمه بأنه خان مثله العليا ، ومنهم من قال أنه يتمسح بأعتاب القيصر و يتملقه ، فرد بوشكين على هذه التهم بقصيدة أخرى دلل فيها على أنه لا يداهن إذا ما أثنى على القيصر و إنما يعرب عن شعور ذاتى عميق .

وقد لجأ الشاعر للدفاع عن نفسه إلى الإكثار من التحدث عن القيصر بين حاشيته ، وفى الأندية العليا ، بل فى كل مكان ، بلغة غير حكومية ، وكان غالباً ما يقارن نفسه بالقيصر مباشرة ، ملحاً إلى أنه يقف و إياه على درجة متساوية فى العظمة والسلطان.

ولشد دهشة الشاعر أن القيصر لم يسمح له بنشر القصيدة التى نظمها من أجله لأنه لمس فيها آراء لا تتفق ومبدأ الخضوع اللاشرطى للقيصر خليفة الله على الأرض ، ثم و بخه على روح الاعتزاز التى يبديها فى مختلف الأوساط واضعاً نفسه فى مصاف القياصرة .

وحدث وقتئذ أن وضع بوشكين قصيدة فى (أندريه شينه) الشاعر الفرنسى الذى أعدم إبان الثورة الفرنسية الكبرى ، فما أن ذاعت تلك القصيدة حتى اعتبرتها السلطات الروسية قصيدة رمزية تعطف ضمناً على الدسمبريين وتنتقد بطش نيقولا الأول بهم فجاءوا ببوشكين واستجوبوه وطافوا به من دائرة إلى أخرى ، ثم أطلقوا سراحه واكتفوا بضرب نطاق شديد من المراقبة عليه وحرموه حرية التنقل دون إذن خاص من رئيس الدرك القيصرى بنكندورف .

وتبع هذا الحادث حادثاً آخر أزعج الشاعر وجعله يتطلع إلى مستقبله الأدبى بشىء من التشاؤم ، ومفاد الأمر أن الشاعر كان يعقد فى بيته و بيوت معارفه وأصدقائه اجتماعات أدبية ، يقرأ عليهم فيها فصولاً من روايته الشعرية الجديدة (بوريس غودونوف) التى لم تكن المراقبة قد أقرتها بعد ، فلما بلغت هذه الاجتماعات القيصر استاء جداً و بعث فى طلب بوشكين وأنّبه على ذلك أشد التأنيب ولم يتركه قبل أن أخذ منه تعهداً بألاّ يقرأ شيئاً من مؤلفاته الجديدة فى المستقبل على أحد ، واقترح عليه أن يحوِّر الفكرة التى قامت عليها رواية (بوريس غودونوف) ،

فكرة الشعب والحكومة ، إلى فكرة غرامية مجردة .

ولم تمض فترة قصيرة من الزمن حتى وقعت فى أيدى السلطات القيصرية قصيدة جديدة لبوشكين وهى قصيدة (غابريليادا) المرطقية النزعة ، فاحمرت العيون على الشاعر ، وانعقدت سحب قاتمة فوق رأسه ، فتراءت له القيود ومنافى سيبيريا ، وبعد استجواب وتحقيق عنيفين أقر الشاعر بذنبه ، واستنكر ما جاء فى (غابريليادا) برسالة لا زال نصها مجهولا بعث بها إلى القيصر فعفا عنه مقابل تعهدات جديدة أخذها عليه .

لم تفتر المراقبة القيصرية تشدّد النكير على بوشكين وعلى مراسلاته ، واتصالاته ، وكان جواسيس القيصر يرفعون لمولاهم دائماً تقارير سرية يطلعونه فيها على أنباء الشاعر ، وقد جاء فى تقرير رفعه ضابط البوليس مولر الى رئاسة بوليس موسكو بتاريخ عشرين ايلول (سبتمبر) سنة ١٨٢٩ ما يلى : « سرى . . لى الشرف أن أحيطكم علماً بأن الشاعر المعروف الكسندر بوشكين الموظف من الدرجة العاشرة المعتزل الخدمة جاء موسكو ونزل فى فندق انكلترا الواقع فى قسم تفرسكويه ، الحى الأول ، وقد فرضت عليه رقابة شديدة » .

والواقع أن بوشكين كان فى موسكو بذلك التاريخ وقد أتاها طالباً يد أجمل فتيات الروس وهى نتاليا نيقولايفنا غونتشاروفا، التى غدت فيما بعد زوجة له، غير أن أهلها رفضوا فى بادىء الأمر طلب الشاعر فتألم لهذا الرفض الذى جاء فى فترة اضطربت فيها حالته السياسية والاجتماعية، فزادت همومه هموماً، ورأى أن المخرج الوحيد من هذه الأزمة هو فى مغادرة البلاد بأقرب فرصة ممكنة فسأل القيصر الإذن بالسفر إما إلى أوروبا و إما إلى الصين وكان جواب العاهل الروسى قاسياً مهيناً، ولما ضاقت بالشاعر السبل رحل إلى القوقاس مع الجيش الروسى (إذ كانت روسيا وقتئذ فى حرب مع تركيا) دون أن يعلم أحد بأمر سفرته هذه فحنق القيصر عليه أشد الحنق، وأمر بنكندورف أن يثير على الشاعر حملة شعواء، وأن يبلغه رسالة يسأله فيها من الذى سمح له بخرق تعهداته؟. فأذعن رئيس الدرك القيصرى لأمر مولاه وأرسل لبوشكين الرسالة التالية: «بلغ صاحب الجلالة الامبراطور أنكم سافرتم إلى القوقاس، وعرجتم على أرضروم، وقد أمرنى أن أستوضح منكم من الذى أذن لكم القيام بهذه الرحلة؟.. وإننى أرجوكم بدورى أن تطلعونى على الدوافع التى حدت بكم ألا تتقيدوا

بالوعد الذى قطعتموه على نفسكم بعدم مغادرة العاصمة قبل الحصول على إذن رسمى ؟ . . » .

وما أن عاد بوشكين إلى بطرسبورغ حتى هبت الزوابع فى وجهه ، وكانت الحرب التى أشهرها نيقولا الأول وبنكندورف عليه بمثابة إشارة للصحف والمجلات الحكومية لكى تشرع بشن حملات عنيفة على أدبه وشخصه .

فى سنة ١٨٣٠ أصدر الشاعر أنطون دلفيج زميل بوشكين فى معهد القرية القيصرية (الصحيفة الأدبية البطرسبورغية) وكان من البديهى أن يسأل زميله المعونة فى تحريرها ، فتعاقدا معاً وأخرجاها فى حلة قشيبة طافحة بالمواد من أدب وعلم وشعر ، وكان لصدورها رنة استحسان فى جميع الأوساط الروسية التقدمية ، وسرعان ما التف حولها عدد كبير من الأصدقاء والمناصرين .

وكانت تصـدر فى بطرسبورغ فى تلك الآونة أيضاً مجلة (نحلة الشمال) الأدبية ، وصاحبها يدعى (بولغارين) وهو رجل نمام حسود ، اعتاد احتكار نقد الحياة الأدبية الروسية وتقريظ الـكتب وسواها من المطبوعات ، فيستغلها استغلالا نفعياً يدر عليه الأرباح الطائلة ، فلما صدرت (الصحيفة الأدبية) أكلته

الغيرة ورأى فيها منافساً خطراً لا يجوز السكوت عنه مطلقاً .

وكان بولغارين هذا على صلة وثيقة برئيس الدرك بنكندورف يروج له الدعايات فى جميع المناسبات ، ويخلع عليه ألقاب الشرف جزافا ، وإذ كان فى زيارته مرة انتقل بهما الحديث إلى بوشكين و (الصحيفة الأدبية) فاستشف بولغارين من خلال هذا الحديث أن القيصر و بنكندورف حانقين على بوشكين أكثر من أى وقت مضى ، فوجدها فرصة لا تفوّت ، وعزم على أن يطلق لقلمه ولسانه العنان .

ولما طلع بوشكين بالفصل السابع من مسرحيته الشعرية (أوجين أونيغين) ، وكان ذلك الفصل من أبدع ما أنتجته عبقرية أمير شعراء روسيا ، عمد بولغارين إلى الشروع بالمعركة ضد خصمه فاستهلها بتقريظ للفصل المذكور ، تعمد فيه التشويه والتضليل ، وقد جاء فيه ما يلى : «لم نعثر على أية فكرة تستحق التنويه فى هذا الفصل السابع المائع ! . . لم نعثر على أية صورة أو شعور يستحقان النظر ! . . إنه لانحطاط كلى ، لقد ظننا أن مؤلف (روسلان ولودميلا) توجه إلى القوقاس لينهل حساسيات الشعر السامية ، وليمتلأ نفسه بالانطباعات الجديدة عن أعمال

البطولة الروسية فيقدمها للأجيال فى شكل أغان عذبة خالدة . . لقد ظننا أن الحوادث العظيمة التى وقعت فى الشرق ، والتى أثارت دهشة العالم ، وأكسبت روسيا احترام جميع الأمم المتمدنة ، ستهز شعراءنا وتوقظ فيهم ربة الشعر . . لكننا أخطأنا التقدير ، فالشعراء المنشدون البارزون التزموا الصمت ، وظهر (أونيغين) فى صحراء شعرنا ثانية ، ذابل الوجه ، خائر العزيمة ! . . ، لقد تلاشت آمالنا بالشاعر ! » .

ثم انتقل بولغارين فى حملته على الشاعر من الطعن فى مؤلفاته الأدبية إلى التحامل على كرامته الشخصية مشيراً إلى أن جده الأكبر لأمه إن هو إلا عبد ابتاعه بطرس الأكبر ! . . ولا يحق لرجل تجرى فى عروقه الدماء الزنجية أن يدعو أمة الروس إلى الإصلاح والحرية . . وقد اشترك فى هـذه الحملة عدد من صحفيي البلاط الروسى ، يدعمهم من وراء ستار نيقولا الأول وبنكندورف ، وكانت حملة شديدة الوطأة على نفس بوشكين الذى وقف عاجزاً حيالها ، غير قادر على دفعها وتفنيدها ، لأن الرقابة كانت تحرمه من هذا الحق ، وعيون القيصر كانت تعد عليه الأنفاس ، فغدا أسيراً لا سلاح له سوى الاعتداد بآل بوشكين

الأشراف وما لهم من امتيازات موروثة تخولهم حق التدخل فى الشؤون العامة وتمنحهم حرية الاستقلال فى الرأى .

وفى ربيع سنة ١٨٣٠ أعاد بوشكين طلب يد الفتاة الرشيقة الحسناء نتاليا نيقولايفنا غونتشاروفا ، فوافاه الحظ فى هذه المرة وكان القبول والرضا من جانب الفتاة ، أما أمها فقد طرحت على بوشكين ثلاثة أسئلة طالبة الجواب عليها فوراً للحصول على موافقتها. وهى : أولاً — هل يضمن السعادة لابنتها مع كل ماعرف عنه من شباب طائش ؟ . ثانياً — هل يمكنه وضعه المادى من ضمان كل ما تحتاجه ابنتها وهى التى لم تعتد الحرمان ؟ . . ثالثاً — هل هو مراقب من رجال الأمن وتحوم حوله الشبهات السياسية ؟ . .

فكانت أجوبة بوشكين على هذه الأسئلة مائعة غامضة ، لكنها أدخلت الطمأنينة إلى قلب الأم وأعلنت موافقتها على الزواج ، وهكذا اجتاز الشاعر المرحلة الأولى فى طلب يد نتاليا ، فتبقى عليه اجتياز مرحلة أخرى أمر وأدهى وهى موافقة القيصر على عقد الزواج ! . .

وبعد أن أشعر بوشكين نيقولا الأول عن عزمه الاقتران بنتاليا غونتشاروفا ، كما تقتضى حقوق الرعاية ، تلقى منه رداً بواسطة

بنكندورف قال له فيه أنه لا يمانع فى زواجه ، ومنحه البركات ، ومونه بالتحذيرات والتوبيخات . . فقد كتب بنكندورف إلى الشاعر يقول : « إن صاحب الجلالة الذى يعتنى بكم اعتناء أبوياً خولنى بوصفى شخصاً يتمتع بثقته الامبراطورية ، لا بوصفى رئيساً للدرك ، أن أشرف عليكم ، وأن أوجهكم بنصائحى الدائمة حتى بعد اقترانكم وصيرورتكم رب عائلة ! » .

فكل هذه الحوادث المتعاقبة عملت على زعزعة ثقة الشاعر بالقيصر ، وحطمت آماله به شيئاً فشيئاً ، فقد أدرك بوشكين فى نهاية الأمر أن القيصر وحاشيته لم يطلبوا منه أن يكون مواطناً مخلصاً أميناً و إنما طلبوا منه أن يكون عبداً ذليلاً يسخر مواهبه للتسبيح بحمد الدولة وسلطانها .

وقد أعرب بوشكين عن شعوره هذا بقصيدة عميقة المعانى دعاها (البطل) ، صاغها فى قالب حوار بين شاعر وصديق له حول البطولة والمجد ، فالشاعر يحاول إقناع صديقه بأن البطولة الإنسانية هى أسمى مظاهر المجد ، ويضرب على ذلك مثلا بقوله أن نابليون كان أثناء الحملة المصرية يعود الجنود المصابين بالطاعون و يصافحهم ويشجعهم ، ويثير فيهم روح الرجولية وهم على عتبة الموت . . أما

الصديق فيؤكد للشاعر مستنداً إلى أمثلة تاريخية عديدة بأن بطولة نابليون هذه لا تستحق التمجيد لأنها بطولة مصطنعة أشبه بالخرافات والأساطير.

والواقع أن قصيدة (البطل) هذه التى تحدث فيها بوشكين عن إنسانية نابليون المصطنعة هى قصيدة رمز بها إلى نيقولا الأول بمناسبة عيادته المصابين بالكوليرا من سكان العاصمة الروسية الذين استولى عليهم الذعر حيال هذا الوباء الفتاك ، فكان القيصر مثل نابليون يصافح الموبوئين ويواسيهم وهم على أبواب الأبدية : فاكتسب بذلك لقب البطولة الإنسانية كما أكتسبها ذاك ، وكانت بطولة مزيفة كما كانت تلك .

وبعد أن لمس بوشكين هذا التشابه فى الرياء بين الأمبراطور والقيصر قال فى آخر قصيدته متألما : « إيه أحلام الشاعر . . أن المؤرخ الصارم يعدو فى أثرك ! » . ولما تملكه اليأس والقنوط ، ورأى أن الآمال التى عقدها على نيقولا الأول تتحطم ، قال فى قصيدة أخرى ما معناه : « إن الحقائق المظلمة الحقيرة لهى أسمى لدى من سيادة الضلال وبهرجته » ، وتساءل فى مكان آخر من

هذه القصيدة ، « إن تخلى البطل عن قلبه ماذا يحل به ؟ . .
فيجيب : أنه ينقلب إلى مستبد جائر » .

بمثل هذه العبارات أعرب بوشكين عن تشاؤمه من القيصر وعدله ، وغدا يحلم فى أمر واحد لا ثانى له وهو الابتعاد عن محيط القيصر فى مكان قصى ، وليكن هذا المكان قرية نائية حيث الأحراش ، والبحيرات صيفاً ، وحيث الثلوج والزمهرير القارص شتاء ، فإلى القرية إذن ، إلى القرية التى لا يجد فيها الشاعر من يضايقه وينغص عليه عيشه .

حقاً أن الفترة التى قضاها بوشكين فى بطرسبورغ ، بعد عودته من ميخايلوفسك ، كانت فترة عصيبة فى حياته الشخصية ، لكنها لم تكن لتوهن عزيمته وهو صاحب الرسالة الاصلاحية الكبرى ، ولم تقف حجر عثرة فى سبيل نبوغه ، كما أنها لم تحدد من سيل إنتاجه ، فقد واصل فى تلك الأثناء كتابة فصول (أوجين أونيغين) ، ونظم القصائد الغنائية الكثيرة ، ووضع قصيدة (پولتافا) (٢٦) استعرض فيها بطولة بطرس الأكبر وتغلبه على ملك السويد شارل الثانى عشر ، وقصيدة (الفارس النحاسى) وهى مستوحاة من تمثال بطرس الأكبر القائم فى ساحة مجلس

الشيوخ فى بطرسبورغ ، وكتب سيرة (إبراهيم هانيبال) جده الأكبر لأمه فتحدث فيها أيضاً عن بطرس الأكبر معدداً مناقبه، وملمحاً إلى ما تحلى به من خصال إنسانية حميدة .

ونلمس فى كل ما نظمه الشاعر فى بطرس الأكبر وكتبه أنه كان من المعجبين بذلك القيصر بوصفه زعيم بلاد مجدد ، عمل على نشر الثقافة الغربية فى روسيا ، وأدخل فيها الإصلاحات الجمة وخاصة إثر عودته من سياحته فى أوروبا ، وأنه كان يتمنى رؤية قيصر شبيه ببطرس فيأخذ بيد روسيا ويعمل على انهاضها فظن فى مرحلة من الزمن أن نيقولا الأول هو القيصر المنشود غير أن مجرى الحوادث التاريخية نقض ظنه هذا وخيب آماله .

وتعرض بوشكين فى قصائده الأخرى التى وضعها بعد عودته من ميخايلوفسك إلى طبيعة الفن الشعرى ، وأهداف الشعر ، ومهام الشعراء ، وكان رأيه فى ذلك أن هناك رابطة وثيقة بين الشعر والحياة الإجتماعية ومؤثراتها ، وبين الفن والتعليم من جهة ، والأدب وآراء العصر التقدمية من جهة أخرى ، وقد نهج الشاعر على هذه المبادىء فى حياته الفنية متوخياً تسخير نبوغه لفائدة أمته ووطنه ، ولطالما تمنى أن ينفرد إلى الشعر

الهجائى ليحمل على المساوئ الإجتماعية ، ويستثير نقمة الشعب على كل ما هو خسيس وضار .

وتراءى للشاعر بعد أن خفتت أصوات المجددين ، وتزعزعت ثقة الشعب الروسى بالدسمبريين إثر الفشل الذى أصابهم ، وظل مجتمع نيقولا الأول مجتمعاً لا يحيد عن الجمود قيد أنملة تراءى له فى هذه الحقبة من الزمن أن هناك تناقضا بين الشعر والحيـاة ، فنظم قصيدة (الشاعر) أودعها ما يحز فى نفسه من ألم الغربة بين الناس فقال :

« لم يطلب (ابولو) من الشاعر بعد ، أن يقدم على التضحية المقدسة ، أنه في مهام الحياة ومتاعبها ، مثقل الأحمال ، وجل ، قيثارته المقدسة تلتزم الصمت ، ونفسه تتذوق السبات الفاتر ، أنه بين أطفال العالم المنبوذين ، ربما يكون أنبذهم بلا مناصر ، لـكن إن مسّ سمعه المرهف ، ذلك الصوت الربانى ، تنتفض روحه وتستيقظ ، كما يستيقظ النسر » .

* * *

« إنه يحزن فى ملاهى الحياة ، يشعر بغربة فى صخب الشعب ، لا يطأطىء رأسه الفخور ، عند أقدام مذبح الناس ، ان نفسه

تميد بالتمرد والألحان ، إنه يفر كالوحش الضارى ، يركض على شاطىء القفر الطليق ، ووجهته الغابات الشاسعة ، الزاخرة بحفيف الأشجار . »

وهكذا غدا بوشكين يفكر بالتأليف خارج المجتمع ، بعيداً عنه بقدر المستطاع ، يريد أن يكون شاعراً « بلا صدى » شاعراً لنفسه ومن أجل فنه فقط . . وكلما اشتد الخلاف بين الشاعر والقيصر وحاشيته ، تأصلت فيه فكرة التناقض بين الفن والمجتمع ، وتعاظم نفوره من العناصر التى تعادى الشعب ، وتعاكس تقدمه ، وتحارب فنونه ، فنعتها فى قصيدة له بـ « السواد » لأنها لا تعرف إلاّ النفاق والمداهنة . وقد بلغت الجرأة بهذه العناصر أن تعرض على الشاعر رغباتها الخاصة سائلة إياه أن يسكب هذه الرغبات فى قوالب من الشعر ، ثم تمادت وأخذت تشير عليه كيف يكتب وينظم ، فكان من البديهى أن يحتج الشاعر على ذلك المحيط وأن ينكمش على نفسه ضمن دائرة فنه الخالص ، معتقداً أن الفن قوة مستقلة تستهدف نفسها ، وتقنع بذاتها ، بعيدة عن السياسة والحياة الاجتماعية .

فنظرية الفن من أجل الفن التى اقتنع بها بوشكين ليس لها

أية علاقة بنظرية الفن الخالص التى دعا اليها الأدباء الشكليون (الإتباعيون) وما زالوا يدعون، فهدف هؤلاء تحويل الفن الى ألوهية شكلية مجردة من كل مضمون، أو هدف، أو معنى؟ إنهم فى حياتهم الفنية هذه لا ينزعون نزعة ديمقراطية لأنهم يحتقرون عامة الشعب، بعد أن يكونوا قد انتزعوا منهم المادة لفنهم وشوهوها بتحويلهم إياها إلى أولهية يتحكمون فيها و يتعسفون

لم ينس بوشكين فى جميع أدوار حياته أنه إنما يكتب للشعب وأن عليه توخى الدقة والبساطة ووضوح الفكرة فى فنه، أما إكثاره من التحدث عن الفن من أجل الفن فما كان يقصد منه إلا ليضع نفسه ضد الكتاب والشعراء النفعيين الذين كانوا ينشدون و يتحسسون وفاقاً لإرشادات تأتيهم من عل، و يقيسون قيمة الإنتاج الفنى بمقياس الأوامر الرسمية التى تصدر اليهم من المراجع ذات الاختصاص.

و إذا ما طالعنا قصائد بوشكين المعروفة بأنها وضعت من أجل الفن فقط وجدناها قد انطوت فى ذات الوقت على حملات تهكمية لاذعة لمجتمعه، فقد قال فى قصيدته «السوداء» مخاطباً أعداء الفن والإبداع:

« إليكم عنى ، اغربوا ،
فما لكم والشاعر المسالم ،
تحجروا فى الخلاعة ولا تجبنوا ،
إن صوت القيثارة لن يبث فيكم الحياة ! »

ذكروا عن الشاعر أنه لم يطق بتاتاً أن يسأل فى حلقات الأوساط العليا إلقاء شىء من قصائده ، وحدث مرة أن دعته الأميرة زينايدا ڤولكونسكايا إلى صالونها الأدبى ، فلبي الدعوة وبعد أن اكتملت الحلقة رجوه أن يسمعهم نتفاً من قصائده فاعتذر غير أن الأميرة وضيوفها ألحوا عليه ، ولما لم يجد مفراً من تلبية طلبهم نهض متثاقلاً وقرأ عليهم قصيدة « السوداء » ! وختمها متمتما : « لعلهم لا يلحون على مرة أخرى ! »

لقد أحس بوشكين أنه أصبح غريباً فى مجتمع الأشراف الروسى الذى ينتمى اليه ، وإن عليه أن يقرر مصيره دون تردد فولى وجهه شطر الشعب ، شطر الأجيال المقبلة .

بوشكين روائى وقصصى

هذه هى المرة الأولى التى يخرج فيها بوشكين من العاصمة الروسية غير منفى ، ففى الخامس عشر من شهر أيلول (سبتمبر) سنة ١٨٣٠ استقل الشاعر عربة وتوجه إلى أملاك أبيه فى قرية بولدينة الواقعة فى إقليم بيجيغورودسك ليستلم ماخصصه له أبوه من أرض ومسكن بمثابة دعامة مادية لحياته الزوجية المقبلة .

جاء الشاعر القرية وقد اعتزم ألاّ يمكث فيها طويلاً ، فيرتب شؤون أملاكه ، يدرس عن كثب ما يمكن أن تدره عليه هذه الأملاك من دخل سنوى ، و يعود أدراجه إلى موسكو لإتمام إجراءات الزواج ، لكن لسوء طالع بوشكين أو لحسنه أنه اضطر إلى البقاء فى بولدينة خريف سنة ١٨٣٠ بأكمله وذلك بسبب انتشار وباء الطاعون فى منطقة الڤولغا واجتياحه إقليم نيجيغورودسك ، وإقامة النقاط الصحية فى كل مكان ، وإيصاد الطرق المؤدية إلى موسكو .

وبعد مرور الشهر الأول من إقامة الشاعر فى بولدينة اقتنع تماماً بأن القرية فى حالة يرثى لها من التدهور ، وأن فلاحيها

فقراء هزيلين ، وبالتالى لايصح الاعتماد على حصته من محصولها الزراعى ، وأن عليه أن يعتمد فقط على دخله من تآليفه الأدبية والشعرية .

لقد كان الكتاب النبلاء وشعراؤهم فى عهد بوشكين ينظرون إلى الأدب بمثابة وسيلة للترفيه عن أنفسهم وعن أنفس الكسالى المتنعمين من الناس ، ولهذا السبب كانوا يعتقدون أن من الإهانة بمكان ، بل من الحطة بسمعتهم وكرامتهم أن يكرسوا أنفسهم لخدمة الأدب ، فهم نبلاء بالدرجة الأولى ثم كتاب وشعراء وفنانون .

فبولدينة كانت نقطة تحول فى حياة الشاعر ، إذ صار يتطلع إلى نفسه لا كشاعر بالاسم فحسب ، بل وبالمهنة أيضاً ، يمتاز عن غيره من الفنانين النبلاء بوجهة نظره الديمقراطية فى الأدب ، واعتباره إياه مصدر معاش ، هذا ضرب جديد من المهن لم يكن مألوفاً بين أولئك الفنانين فى ذلك العصر .

حاول بوشكين ثلاث مرات الإفلات من بولدينة والعودة إلى موسكو حيث تنتظره عروسه ، وكان الفشل من نصيبه فى كل مرة ، فكتب لنتاليا فى إحدى رسائله يعرب لها عن استيائه من

الفخ الذى أوقعته الصدف فيه فقال : « إننى على أهبة العودة إلى موسكو مع أن أشغالى لم تنته بعد ، غير أن السلطات المحلية أحاطتنى علماً بأن خمسة مراكز صحية أقيمت فى الطريق حتى موسكو ، وأنه يقتضى على المسافر أن يمكث أربعة عشر يوماً فى كل من هذه المراكز الخمسة ، ومما زاد الحالة سوءاً أن الأمطار هطلت بغزارة فكثرت الأوحال ، وتعطلت طرق المواصلات ، يضاف إلى ذلك انتشار الأمراض والأوبئة ، ووقوع اضطرابات ثر إا استفحال داء الطاعون . . إننى أتميز غيظاً وأكاد أقنط ، ويلوح لى أن حفلة زفافنا تفر من وجهى . . حقاً هل من مهزلة يبتدعها الدهر أسخف من هذه المهزلة ؟ » .

وكانت نتيجة هذه العزلة غير المختارة أن وضع بوشكين خلال أشهر الخريف عدداً وافراً من القصائد والمسرحيات ، فأنجز الفصلين الأخيرين من رواية (أوجين أونيغين) ، ونظم القصص الشعرية التالية : (بيت فى كولومنه) ، و (الفارس البخيل) ، و (موزار وساليرى) ، و (عيد أثناء الطاعون) ، و (دون جوان) .. وألف مجموعة من القصص النثرية تحت عنوان (قصص باكلين) ، و (سيرة قرية غوريوخين) ، وعدداً كبيراً

من القصائد الغنائية ، والمآسى المسرحية ، والمقالات المطولة فى النقد الأدبى .

أن الفترة التى قضاها بوشكين فى قرية بولدينه تؤلف صفحة هامة فى حياته لا من ناحية كمية ما صنفه ونظمه بل من ناحية المضمون والجوهر ، ففى بولدينه أقدم الشاعر على تصوير سائر طبقات المجتمع الروسى من أشراف ، وأعيان ، وصناع ، وفلاحين وفى بولدينه هذه بلغت آراء بوشكين الواقعية الذروة ، فكان أول من عبّد الطريق لهذا المذهب فى تاريخ الأدب الروسى ، وما بلغ الأدب الروسى ما بلغه من مرتبة عالمية ، وشهرة طبقت الآفاق ، إلا لأنه يقوم على وقائع الحياة مباشرة ، وينتهل مادته من صميم النفس البشرية .

فرواية (أوجين أونيغين) التى أتم بوشكين تأليفها فى بولدينه هى رواية تصف لنا المجتمع الروسى لذلك الزمن بأسلوب شائق ، وقد قال الناقد الأدبى الروسى الكبير بلينسكى [٣٧] فى تلك الرواية : « إننا نرى فى أونيغين صورة المجتمع الروسى وقد بدت للعيان فى قالب شعرى ، فهى ملحمة تاريخية بكل معنى الكلمة ، مع أنها لا تتضمن أية شخصية تاريخية ، إنها أول تجربة لهذا النوع

من النظم ، وكانت تجربة جد موفقة برهنت على أن بوشكين ليس شاعراً فحسب وإنما هو أول ممثل للادراك الاجتماعى المتيقظ . لقد تركت (أرجين أونيغين) أثراً عميقاً فى آداب الشعب الروسى وأخلاقه ، انها وثيقة بلوغ رشده ، وجدير بنا أن نسميها دائرة معارف الحياة الروسية » .

وتابع بلينسكى تحليله (أوجين أونيغين) بقوله : « أما المبدأ الاجتماعى الذى اتخذه بوشكين لنفسه فى روايته هذه فيقوم على كون الإنسان لم يخلق للشر و إنما للخير ، ليس للجريمة و إنما ليتمتع بخيرات الوجود تمتعاً مشروعاً معقولا ، فمساعى الإنسان عادلة ، وغرائزه كريمة ، وأن روح الشر لا تكمن فى نفسه بل تكمن فى المجتمع ، والسبب فى ذلك أن المجتمع لا زال بعيداً عن تحقيق مثله الأعلى ، و بلوغ درجة الكمال » .

أما المآسى المسرحية التى وضعها بوشكين فى بولدينة فقد بُنيت على وقائع مستقاة من تاريخ انكلترا ، واسبانيا ، وألمانيا ، وهى إن دلت على شىء فإنما تدل على مقدرة بوشكين الفائقة فى طرق أبواب الأمم والشعوب الأخرى والتغلغل فى حقائقها

الداخلية ، واستيعاب كبائرها وصغائرها ، والغوص في خصائصها ومميزاتها .

وقد علق بلينسكى على هـــذه الناحية فى بوشكين بقوله : « إن مقدرة بوشكين على التبحر فى حياة الأمم الأخرى ، هى صفة من صفات الروس القومية ، فالروس قوم ليسوا بضيقى النظر القومى ، وهم يهتمون بكل ما أدركته الشعوب من مدنيات وثقافات . كما أنهم قادرون على هضم جميع ثمار العلوم ، والفنون والسياسات العالمية » .

ويحلق بوشكين بفنه الواقعى فى مآسيه الصغيرة هذه ، فيصف خصائص الديار الأجنبية التى تجرى فيها الحوادث ، ويصور الأشخاص بعبارات سلسة مقتضبة ، وهم كما نراهم فى مآسيه لا يشبهون أشخاص بيرون الذين يحملون طائفة محدودة من العواطف قد اجتُزأت اجتزاء من مجموعة العواطف الإنسانية ، وإنما هم كلهم حيوية ، كثيرو المناحى ، متعددو الرغبات ، مثلما هى عليه الطبيعة البشرية فى الحقيقة والواقع .

كان الأدباء النبلاء فى عصر بوشكين يعتقدون أن طبقات الشعب المتوسطة والسفلى لا تستحق الوصف الفنى ، ولا يجوز

الرجوع إليهما كمادة للابداع الأدبى والشعرى ، فجاء بوشكين ونقض هـذه القاعدة فى كتاب (قصص بلكين) الذى ألمعنا إليه و إذا بهـذه القصص تتضمن صوراً عن (حفّار القبور) و (الموظف الصغير) و (ناظر المحطة) وغيرهم .

فقصة (ناظر المحطة) قصة طافحة بالشعور الإنسانى العميق ، والتألم لآلام الناس ، والعطف على الموظفين المهانين ، والمهضومى الحقوق ، وهى التى ألهمت (غوغول[٢٨]) فيما بعد أن يكتب قصة (المعطف) ، كما أوحت للكاتب غريغوروفيتش[٢٩] أن يضع رواية (أنطون البائس) ، ونبهت دستويفسكى[٣٠] ، ونيكراسوف[٣١] ، إلى تأليف مجموعة نفيسة من الروايات والقصص التى تصور حياة أبناء الشعب .

وعمد بوشكين فى قصته (قرية غوريوخين) إلى وصف القرية الروسية كما كانت عليه من ظلم ومذلة ، وقد أورد الكاتب فى تلك القصة يوميات لأحد ملاّكى قرية غوريوخين جاء فيها :

« الرابع من شباط (فبراير) — الثلج يتساقط . يجب جلد تريشكا لخشونته . فى السادس منه — لقد فقدت البقرة الحلوب يجب جلد سانكا لشربه الخمرة . فى الثامن منه — الطقس جيد .

فى التاسع منه — مطر وثلج . يجب جلد تريشكا لشربه الخمرة ! »

نقم بوشكين على وضع القرية الروسية إبان إقامته فى بولدينه ورأى فى استرقاق الفلاحين لطخة عار للروس ، فأوحت إليه مشاهدات هذه نظم قصيدة جاء فيها :

« ألق بنظرك إلى هذا المشهد
ترى أكواخاً بائسة هنا وهناك ،
ووراءها أرضاً سوداء ،
مُلئت بالأخاديد والمنحدرات ،
وقد عُقدت فى سمائها غيوم رمادية كثيفة ،
أين أنت يا نهر نيفا الكبير ؟ .
أين أنت أيتها الأحراج الشاسعة ؟ .
إننى لا أرى شيئاً منكما هنا ،
وكل ما أراه :
شجرتان بائستان ، تقفان لتسر الأنظار ،
شجرتا فقط ،
جرّد الخريف الممطر إحداهما من الورق ،
وعلى الثانية أوراق ذابلة صفراء ،

تنتظر الرياح لتحملها إلى المستنقعات ،
ولا أرى فى الساحة سوى :
فلاح وامرأتين تسيران فى عقبه ،
وهو حاسر الرأس ،
يحمل تحت إبطه تابوت طفل ،
وينادى على ابن القس الكسول :
أُدع أباك أيها الطفل ،
أُدعه ليفتح الكنيسة ،
أسرع لا وقت لدى ،
لأوارى طفلى هذا التراب ! . . »

إن اطلاع بوشكين على الحقائق الروسية اطلاعاً واسعاً ، وتعرفه إلى مختلف نواحى بلاده ، وتبحره فى تاريخها ، وتتبعه للعلاقات القائمة بين عموم طبقات الشعب الروسى ، وتثقيف نفسه تثقيفاً عالياً متواصلا استمر طيلة حياته ، كل هذه الأمور أتت ثمارها فى تبلور نزعة بوشكين الواقعية فى الأدب والشعر .

بعد الزواج

اقترن بوشكين بالحسناء نتاليا غونتشاروفا فى الثامن عشر من شهر شباط (فبراير) سنة ١٨٣١ ، ولأول مرة فى حياته الطافحة بالمشقات والمحن شعر بالسعادة الزوجية تغمر نفسه بالرغم من الضائقة المالية التى كان يعانيها ، واضطراره إلى رهن حصته من أملاك (بولدينه) لتغطية نفقات حفلة الزواج وتهيئة المسكن الجديد .

كتب الشاعر إلى صديقه بليتنيف (٣٢) يقول : « إننى سعيد فى حياتى الجديدة سعادة لا توصف ، ورغبتى الوحيدة ألاّ يتغير شىء فى منهجى البيتى ، لأننى لا أتوقع أفضل مما أنا عليه ، ولا أبالغ إن قلت لك إننى أشعر وكأننى ولدت ثانية »

لكن هل تحققت آمال الشاعر فى السعادة الزوجية الدائمة ؟ . هذا ما سنراه .

سكن بوشكين مع زوجته فى موسكو فى بادىء الأمر غير أن حماته كانت إمرأة سليطة اللسان، كثيرة الرغبات، تخلق المشاكل من لا شىء ، وكان يلذ لها تحريض ابنتها على زوجها ، وتوجيه



نتاليا نيقولايڤنا بوشكينا

العبارات الجارحة إليه ، وكان من البديهى ألاّ يحتمل بوشكين هذا التدخل الشاذ من حماته فكتب إلى صديقه بليتنيف يقول : « إننى أعيش هنا كما تريد حماتى لا كما أريد أنا ! » ثم فرّ بزوجته إلى بطرسبورغ ، وسكن موقتاً فى القرية القيصرية .

تمنى بوشكين الحياة الهادئة المليئة بالعمل الفكرى المنتج ، والتأليف المفيد ، غير أن سوء طالعه كتب له أن يقاسى المتاعب والآلام تباعاً ، فلما انتقل من موسكو إلى بطرسبورغ أحاطه نيقولا الأول بطوق جديد من « عنايته » ، فعمل على إدخاله مرة أخرى فى وزارة الخارجية ليشغل ذات المنصب الذى شغله إثر خروجه من معهد القرية القيصرية ، وأظهر له من ضروب التودد والملاطفة الشىء الكثير ، وخفف عنه أعباء أعماله الرسمية وأذن له بمراجعة ملفات الدولة لكتابة سيرة بطرس الأكبر ، وفتح له اعتماداً مالياً يلجأ إليه عند الحاجة .

والواقع أن هذا اللطف الذى أبداه القيصر نحو بوشكين لم يكن موجهاً إلى شخصه مباشرة ، وإنما كان موجهاً إلى زوجته الحسناء . كانت نتاليا غونتشاروفا ، كما سبق لنا أن ألمعنا إلى ذلك ، لؤلؤة المجتمعات الروسية الارستقراطية ، وباقة زهورها

الفواحة ، وقد بلغ من تحدث القوم بحسنها أن الدبلوماسيين الأجانب ، فى ذلك العهد ، رددوا اسمها فى تقاريرهم الرسمية المرفوعة إلى رؤسائهم ، وأشاروا إلى ما كانت تتمتع به تلك الفاتنة من مكانة لدى القيصر وحاشيته .

عرف القيصر نتاليا وقت أن كان يزور موسكو فاسترعى جمالها نظره ، ولما غدت زوجة بوشكين وانتقلت إلى بطرسبورغ عقد النية على استدراجها إلى البلاط والسماح لها بالتجوال فيه ، ولما كانت التقاليد المتبعة وقتئذ لا تجيز لامرأة أن تتردد على البلاط إلا إذا كان زوجها ، أو أحد أقربائها ، يشغل منصباً رسمياً فى الدولة ، أسرع عاهل الروس وزج الشاعر فى وزارة الخارجية ، واعتبره فرداً من أفراد « الحاشية » .

لم تفقه نتاليا الصبية المهام الأدبية العظمى الملقاة على عاتق زوجها الشاعر ، فاندفعت تلهو فى المجتمعات العليا ما قُدّر لها أن تلهو ، وتبذر الأموال تبذيراً فاحشاً دون تفكير فى العواقب ، فأرهقت زوجها بما كانت تنفقه على نفسها من حلى وملابس تتناسب مع ذوق البلاط ، فى حين أنه لم يكن لذلك الزوج من

مورد ثابت سوى دخله من نتاجه الأدبى ، وأرزاق سنوية طفيفة تأتيه من حصته فى أملاك أبيه .

كتب بوشكين فى رسالة له آنئذ يقول : « إن حياتى فى بطرسبورغ متقلقلة ، واهتمامى بتأمين المعاش لأسرتى لا يدع الضجر يتسرب إلى نفسى ، غير أنى أفتقد أحياناً حياة العزوبة الطليقة الضرورية للفنان ، فها أنا أرتاد المجتمعات العليا ، وقرينتى تتبع الأزياء الباريسية وغيرها ، وهذا كله يتطلب نفقات باهظة والمال أجمعه عن طريق العمل ، والعمل يتطلب العزلة والوحدة . » وكتب فى رسالة أخرى يقول : « إن طراز المعيشة فى بطرسبورغ لا يتفق مع مشاربى ولا بأية صورة كانت ، فلا ذوقى ولا امكانياتى باستطاعتهما أن يتكيفا مع حياة العاصمة ، ولكن ما العمل ، على أن أحتمل ذلك سنتين أو ثلاث سنوات »

كان بوشكين كما عهدناه ذا إرادة قوية ، طموحاً ، محباً للعمل كيفما كانت الظروف التى تحيط به ، وقد صدق الشاعر ڤيازيمسكى (٣٣) الذى عرف بوشكين عن كثب حين قال فى وصفه إياه : « كان الشاعر الكبير عظيم الحيوية ، تزعجه صغائر الأمور ، وكان عرضة لنزعاته الداخلية المتقلبة ، فينجذب نحو

الهدف الذى يرمى اليه تارة وينحرف عنه تارة أخرى ، ولقد اتسم بقوة معنوية خارقة يرجع اليها الفضل الأكبر فى المحافظة على مستواه العالى الخلقى والأدبى . أما سر هذه القوة فهو حب العمل، والشعور الدائم بالحاجة الماسة إلى الإنتاج وإلى النظم والتأليف .
« كان العمل الفكرى هيكل بوشكين المقدس ، إذ فيه كانت تشفى جروحه ، ومن ينبوعه كانت أحزانه تنهل النشاط والحيوية ، وفى فيئه كانت الحياة تدب إلى قواه إن وهنت وخارت ، وإذا باغتته آلهة الفن بملهماتها استأسد بعد الدعة ، فوضع مولوداً جديداً من الفن الرائع » .

طمح بوشكين إلى العمل المنتج غير أن الظروف الخاصة والعامة التى اكتنفته فى بطرسبورغ لم تدع له المجال لأن يستقر ويهدأ ، كما أن القيصر نيقولا الأول وحاشيته لم يسمحوا له قط بمغادرة جو العاصمة الروسية الموبوء ، ومع ذلك كله كان الشاعر يتابع بكل تعطش مجرى حوادث عصره السياسية ، ولم ينقطع لحظة واحدة عن مواصلة أعماله الأدبية والعلمية .

ففى سنة ١٨٣٠ اشتعلت نيران الثورة البولونية الاستقلالية فامتدت من كراكوف إلى فرسوفيا ولم تقمع إلا فى سنة ١٨٣١ ،

وقد كان لهذه الثورة صداها فى شعر بوشكين فنظم فيها قصيدة (خصوم روسيا)، و (ذكرى معركة بورودين)، وكان فى قصيدتيه هاتين من القائلين بابقاء بولونيا فى دائرة النفوذ الروسى مشيراً إلى أنه لولا الجيوش الروسية لما تمكنت بولونيا من الخلاص من نابليون، يضاف إلى ذلك اعتقاد الشاعر بأن لروسيا رسالة روحية عليها أن تؤديها إن فى بولونيا أو فى القوقاس.

وفى الوقت الذى كان الشاعر يؤيد فيه القيصر فى سياسته الخارجية كان ينفر كل النفور من سياسته الداخلية، حتى أنه أحجم عن طلب إذن باصدار جريدة سياسية كيلا تصبح جريدته هذه لساناً رسمياً، وكيلا يتحول هو شخصياً إلى كاتب حكومى.

طلب القيصر من بوشكين وقتئذ أن يكتب سيرة بطرس الأكبر، فلاقى هذا الطلب لأول وهلة صدى حسناً فى نفس الشاعر، إذ كان كما أسلفنا من المعجبين بشخصية بطرس التاريخية، وكان يتمنى أن يحذو نيقولا الأول حذو ذلك العصامى الكبير، لكن الوقائع خيبت آماله هذه، فجاء طلب القيصر بكتابة سيرة بطرس متأخراً، ولم ير الشاعر فيه ضرورة تاريخية ملحة فأهمله وراح يوجه اهتمامه إلى دراسة حياة الفلاحين الروس،

وكان شاهد عيان على الاضطرابات التى وقعت أثر انتشار الطاعون سنة ١٨٣٠ ، واضطرابات الجنود فى قضاء نوفوغورود سنة ١٨٣١ ، فلفتت هذه وتلك أنظاره إلى القرية الروسية وشرع يصلها بفكره بثورة إيميليان بوغاتشوف (٣٤) التى هبت على ضفتى الفولغا فى سنى ١٧٧٣ — ١٧٧٥ ، إبان حكم القيصرة كاترين الثانية .

عاد بوشكين إلى سيرة بوغاتشوف وقد سمح له القيصر بمراجعة الوثائق الحكومية التى أوصت كاترين الثانية بعدم فتحها إلا بعد مضى نصف قرن من الزمن . . وكانت حجة الشاعر فى مراجعة تلك الوثائق أنه ينوى دراسة الجنرال سوفوروف (٣٥) قامع ثورة بوغاتشوف ، ولكى يكون الشاعر دقيقاً فى دراسته هذه حصل على إذن قيصرى وسافر إلى المناطق التى شملتها الثورة مثل قازان ، وأورنبورغ ، وأورالسك ، ثم عرّج فى طريقه على قرية (بردى) حيث كان مقر قيادة ذلك الفلاح القوزاقى ، وتقابل هناك بشهود أحياء كانوا لا زالوا يعطفون على بوغاتشوف الذى ادعى بأنه هو قيصر روسيا الحقيقى وليست تلك الإمرأة المسماة كاترين الثانية .

قال بوشكين فى مذكراته عن تلك الرحلة : « رأيت أثناء تجوالى فى المناطق التى شبت فيها الثورة أن قوزاق الأورال ، وخاصة الـكبار منهم ، لم تزل الذكرى تربطهم باميليان بوغاتشوف ، فقط قالت لى عجوز فى الثمانين من عمرها : إننا لا نحمل إلا العطف على إيميليان فهو لم يلحق بنا أى أذى . وسألت أحدهم يدعى بيانيف : قل الحق أتعتقد أن بوغاتشوف كان أباً (باتوشكا) مطاعاً ؟ . . فأجابنى بيانيف الهرم بعنف : أنك تسميه بوغاتشوف ، وأما أنا فأسميه الأمير الخطير بيتر فيدوروفتش ! » .

درس بوشكين حركة زعيم الفلاحين الروس للقرن الثامن عشر ، وحللها بقدر ما كان يسمح به المستوى العلمى لذلك العصر ، فكتب يقول : « كان السواد من السكان يقف إلى جانب بوغاتشوف أما الأعيان فقد أيدوا السلطات ، مع أن زعيم الفلاحين حاول كسب ثقتهم وإقناعهم بأنه هو القيصر الحق ، لـكنه لم يفلح بسبب تضارب المصالح . . » .

ولدى عودته من مواطن حركة بوغاتشوف عرج ثانية على بولدينه ليقضى فيها أشهر الخريف ، فوضع فيها مؤلفه التاريخى

(سيرة بوغاتشوف)، ولما عرضه على القيصر ليحصل على موافقته أمره بأن يستبدل العنوان ب (سيرة تمرد بوغاتشوف)، والاختلاف ظاهر بين العنوانين وهو يبين لنا الفارق فى موقف القيصر والشاعر من ذلك الفلاح الدعى، فالقيصر يعتبره رجلاً وحشياً لا يمكن أن تكون له سيرة خاصة، وأما الشاعر فيعتبره شخصية تاريخية تماثل سيرتها سيرة الشخصيات القوية المتحدرة من أصلاب الطبقات الحاكمة.

ويظهر أن كتابة بوشكين سيرة بوغاتشوف قد أثارت اهتمامه بحياة القرية الروسية ومشاكلها، فوضع روايته المشهورة (دوبروفسكى) — وقد عرضت هذه الرواية على الشاشة البيضاء قبيل هذه الحرب — المؤلف — وخلاصتها أن ترويكوروف رجل صاحب ثروة وجاه انتزع أراضى جاره الملاك الصغير دوبروفسكى، غير أن فلاحى دوبروفسكى أبوا الانتقال إلى ترويكوروف المعروف بجوره وقساوة قلبه، فثاروا عليه بقيادة ابن سيدهم فلاديمير دوبروفسكى؛ بعد أن عجز هذا عن إيجاد حل ينصفه فى استرداد حقوقه المهضومة.

لقد أبدع بوشكين فى روايته هذه فى وصف سيكولوجية

فلاحى دوبروفسكى ، فهم غلاظ الأكباد مع خصومهم ، وهم إنسانيون مع كل من لم يهنهم ويحتقرهم . . ومن أبطال روايته هذه الفلاح أرخيب الذى أغلق باب البيت المحترق على مأمورى تصفية أملاك سيده دوبروفسكى ، غير أنه خاطر بحياته لانقاذ هرة بقيت على سطح البيت !

وأكمل بوشكين فى السنين الأولى من زواجه قصيدة (الفارس النحاسى) ووضع رواية (السيدة البستونية) ، فالقصيدة الأولى وقد ألمعنا اليها فى فصل سابق ، تعرب عن آراء الشاعر البعيدة الغور فى تطور روسيا التاريخى ، ومحورها : الشخصية المتيقظة المطالبة بحقها فى السعادة ، والاستقلال ، والحرية ، واصطدامها بالضرورات التاريخية المتجسمة فى شخص القيصر .

ولعل ما حفز الشاعر إلى كتابة هذه القصيدة هو اقتناعه ، إثر فشل الحركة الدسمبرية ، أن الأحرار الروس ليس لهم قوة اجتماعية تسندهم وتنتصر لقضيتهم ، وأن القيصرية ضرورة تاريخية لروسيا ، ولا يجوز للأفراد الضعفاء أن يقاوموا مجرى التاريخ .. وقد جعل بوشكين بطل قصيدته هذه الشاب (أوجين)

وكان خصمه (الفارس النحاسى) ، أى بطرس الأكبر ، فيصطرعان وينتهى الاصطراع بهلاك أوجين .

والذى نلاحظه فى هذه القصيدة أن بوشكين مع إعجابه ببطرس الأكبر وتمنيه أن يكون نيقولا الأول مثله ، كان يرنو إلى ما هو أفضل من ذلك القيصر المصلح ، فظهر (أوجين) يناصب (الفارس الحديدى) العداء لكنه غلب على أمره تاركا تتمة الرسالة إلى غيره .

فقصيدة (الفارس النحاسى) هى الابداع الفنى فى أسمى درجاته ، وهى التى وصفها بلينسكى بقوله : « لا تدرى ما الذى يدهشك فى هذه القصيدة التاريخية العصماء ، أروعة الوصف وعظمته ، أم البساطة فى التعبير ، فالإثنان معاً يبلغان أعلى مراتب الشعر » .

لم يرض القيصر عن قصيدة بوشكين هـذه ولم يسمح له بنشرها وكان رأيه فيها أنه لا يجوز ابراز (أوجين) متمرداً على (الفارس النحاسى) مهما كانت الدوافع ، وهكذا ظلت القصيدة بين مخطوطات الشاعر ، ولم تطلع على الجمهور إلا بعد وفاته ،

وقد تولى نشرها الشاعر جوكوفسكى مدخلا عليها بعض التحريف ارضاء للمراقبة القيصرية .

أما رواية (السيدة البستونية) فبطلها مهندس عسكرى يدعى هرمان ، وهو شخص ذو فكر هادىء مدقق ، تنتاب نفسه أهواء جامحة ، « فملامح وجهه شبيهة بملامح وجه نابليون وأما نفسه فشبيهة بنفس ميفستوفل » وقد حصر كفاءاته كلها فى اتجاه واحد وهو جمع المال والإثراء . . (فالمال هو أسمى ما تطمح إليه نفسه » ، وقد دفعته شهوته هذه إلى قتل عجوز مثرية نبيلة ، ومن أجل المال داس بقدميه الحس الطبيعى لحب المرأة ، وها هى (ليزا) تبكيه حباً وهياماً ، لكن بكاءها هذا لا يحرك فى قلبه ساكناً . . « نظر لها هرمان صامتاً ، وقلبه يتلوى من العذاب ، غير أن نفسه القاسية لم تهتز لشىء ، لا لدموع الفتاة المسكينة ، ولا لمنظرها الحزين . إنه لم يشعر بتأنيب الضمير لدى تفكيره فى العجوز المقتولة ، والأمر الوحيد الذى كان يثير رعبه هو فقدان السر الذى يقوده إلى الثراء ! »

هرمان شخص مريض تنتهى حياته بالجنون ، وما هيامه بجمع المال إلا مظهر من مظاهر الشؤم المريعة . ففى هذه الرواية

يقف بوشكين موقفاً سلبياً من سلطان المال الناشىء فى روسيا ، ويدين الآداب الحديثة التى تدعو إلى استثمار رؤوس الأموال بدلا من استخدامها فى الزراعة والتجارة .

وفى ختام هذا الفصل نقول إن بوشكين عُرف خلال هذه الحقبة من الزمن باهتمامه الزائد لا بالحياة الروسية الشعبية فحسب ، بل بحياة الشعوب السلافية والأوروبيــة أيضاً ، وقد أوصلته دراساته لآداب الشعوب غير الروسية إلى وضع حكاياته المشهورة مثل (حكاية السمكة والصياد) ، و (حكاية الديك الذهبى) و (حكاية القيصرة الميتــة) وغيرها ، كما ترجم من الفرنسية (أغانى صقالبة الغرب) لميريمه .

مطاعن وعزلة

يندر حقاً أن يرى المرء فى تاريخ الأمم حرباً سجالا بين عاهل مملكة وشاعر كتلك الحرب التى استعرت نيرانها بين نيقولا الأول و بوشكين . فكراهية القيصر للشاعر كانت تظهر بأشكال مختلفة فتارة تبدو واضحة كل الوضوح ، وتارة أخرى تستتر بستار من الاهتمام الأبوى الكاذب ، والعطف القيصرى المزيف .

فنى سنة ١٨٣٤ منح القيصر بوشكين لقب (ضابط البلاط) وكان يرمى بذلك الوصول إلى هدفين ، الأول : تحقير بوشكين وجعله مدعاة للهزء والسخرية ، والثانى : تحويل نتاليا بوشكين حق ارتياد البلاط ، بحكم عمل زوجها فى وزارة الخارجية والتمتع بجميع ملاذه من حضور حفلاته الراقصة ، والاشتراك فى مآدبه الفاخرة ، والتعرف إلى علية القوم وسفراء الدول .

وكانت العادة المتبعة فى البلاط الروسى أن يمنح القيصر فريقاً من الفتيان النبلاء الذين تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة والثانية والعشرين لقب (ضابط البلاط) ، وهو أدنى مرتبة من مراتب البلاط القيصرى ، وكانت مهمة هؤلاء الضباط الفتيان التجوال فى قصر أنيتشكوف بألبستهم الزاهيـة المزركشة ، وحضور الحفلات الخاصة للانحناء أمام القيصر والقيصرة فى كل مناسبة وغير مناسبة ، ومراقصة الحسان من نسوة رجال الحاشية وبناتهن .

فلما ظهر بوشكين ، البالغ من العمر الخامسة والثلاثين ، بين هؤلاء الفتية بلباسه الضيق المقصب ، وبالسيف يجره على الأرض ، وبالأزرار المذهبة تسطع على صدره ، وبالقبعة المحلاة بالريش على

رأسه ، لما ظهر بهذا المظهر أمام رواد البلاط لم يتمالكوا عن الضحك عليه ، والاستهزاء به ، حتى أن القيصر نفسه كان كلما وقعت عيناه على بوشكين (الضابط) تطلع إليه شامتاً وشيعه بابتسامة ساخرة .

كتب بوشكين فى يومياته يومئذ يقول . « لقد مضى على ثلاثه أيام وأنا ضابط فى البلاط ، إن هذه الوظيفة لا تليق بسنى ، ولكن ما العمل إذا كان القصر يريد مشاهدة نتاليا ترقص فى قصر أنيتشكوف ! » .

لم يكن الشاعر العبقرى ليهتم بدقائق عادات البلاط ، وأصوله ، ومجاملاته ، فقد دعى مرة لحضور حفلة راقصة برعاية القيصر ، فذهب إليها باللباس العسكرى والسيف على جنبه . . وسرعان ما لُفت نظره إلى ذلك فعاد أدراجه ليرتدى لباس السهرة ، وبعد أن ارتداها توجه إلى زيارة صديق عزيز له بدلاً من الرجوع إلى الحفلة القيصرية :

وهكذا تكرر تهرب بوشكين من حضور حفلات نيقولا الأول الخاصة جاعلاً المرض دائماً ذريعة له ، وكان القيصر فى كل مرة يتغيب بها الشاعر يسأل عنه ، ويستفسر عن أسباب عدم

حضوره ، وقد حدث غير مرة أن أرسل الطبيب إلى بيته ليتأكد من صحة مرضه ! . . وإذ اتضح له أن بوشكين يتعمد التهرب من حفلاته الخاصة حنق عليه ، وشدد عليه التفكير من جديد ، وأصدر أوامره إلى الشرطة بأن تراقبه مراقبة دقيقة وأن تطلع على جميع مراسلاته مع زوجته التى كانت تقضى فصلى الربيع والصيف فى إقليم كالوجا .

وأعرب بوشكين فى إحدى رسائله إلى زوجته عن عدم رضائه من « اللقب » الجديد الذى منحه إياه القيصر ، فاستولت السلطات على هذه الرسالة وأحالتها إلى عاهل الروس ، فغضب غضباً شديداً على الشاعر وأخذ يهدده بالويل والثبور ، ولم ينقذه من النفى إلى سيبريا سوى أصدقائه أمثال جوكوفسكى ، وبوشين ، وغيرهما . . الذين سووا المسألة وهدأوا غضب القيصر .

وكتب بوشكين إلى زوجته بصدد هذا الحادث يقول : « لقد فتحت دائرة بريد موسكو رسالتى الأخيرة لك واشتمت منها أننى غير ممتن من تعيينى ضابطاً فى البلاط ، فأحالت الرسالة إلى القيصر وكان ما كان . . إننى لعلى استعداد لأن أكون فرداً

من الرعية بل من العبيد ! . . لكننى لن أكون هدفاً للهزء
والسخرية حتى ولا لدى قيصر السماء ! » .

والشاعر فى عبارته هذه يستعيد كلمات عبقرى روسى آخر هو الكاتب الشعبي الكبير لومونوسوف الذى لاقى فى حياته من العنت ما لاقى ، حتى إنه قال : « إننى لن أكون أحمق لدى سادة الأرض ، كما إننى لا أطيق المذلة حتى لدى الله نفسه الذى وهبنى الحياة ! » .

لقد فقد بوشكين حرية المراسلة مع زوجته فكتب لها يقول : « أتوقف عن مراسلتك مرغماً ، ولا أستطيع إمساك القلم بيدى بسبب قحة دائرة البريد ، وكلما تصورت أن أحداً يستمع إلى أسرارنا العائلية أكاد أجن حنقاً ، إننى أشعر بوحشة لا مزيد عليها لبعدك عنى » .

غدا بوشكين يحلم بالاستقالة من « منصبه » فى البلاط القيصرى ، والرحيل إلى القرية حيث يكرس نفسه تماماً للنظم والتأليف ، وفى أواخر شهر حزيران (يونيو) سنة ١٨٣٤ قدم لنيقولا الأول طلباً بالاستقالة فتلقى منه رداً جاء فيه : « من

الأفضل لك أن تبقى فى خدمتنا من أن تبقى لنفسك ! » ، ثم كتب القيصر لبنكندورف يقول : « إننى أسامحه هذه المرة أيضاً للجرأة التى أبداها فى طلب الاستقالة من خدمتنا ، وأطلب منك أن تدعوه للمثول بين يدى لأفهمه أن لكل شىء نهاية ، وأن ما كان يغتفر لشاب طائش فى العشرين من عمره ، لا يغتفر لرجل فى الخامسة والثلاثين ، رب أسرة ، وأبى أطفال » .

وهكذا سحب الشاعر طلب الاستقالة بعد هذه التهديدات الشديدة الموجهة اليه وإلى أسرته أيضاً ، غير أن بوشكين الذى لا يطيق الحياة بلا تأليف لا لتحقيق أهدافه الإبداعية فحسب بل لإعاشة أسرته أيضاً ، أحس بأن جو بطرسبورغ القاتم لا يشجعه على العمل ، فتوجه ثانية إلى القيصر يسأله منحه مأذونية لمدة ثلاث سنوات يقضيها فى القرية ، فأجابه القيصر بقوله له : « إننا نخيرك بين الإقامة فى بطرسبورغ والاستقالة مع كل ما يترتب عنها من نتائج ! » .

لم تتحقق أمنية الشاعر بالخروج من بطرسبورغ فظل مقيما فيها عرضة لحملات منظمة يدير دفتها القيصر نفسه ، ورئيس الجندرمة بنكندورف ، ووزير المعـــارف أوفاروف ، ووزير

الشئون الخارجية نيسلرود، وغيرهم من رجال البطانة القيصرية . .
وقد أوعز فى الوقت نفسه إلى الصحافة الحكومية أن تساهم بالحملة
على الشاعر فصارت فى كتابتها عنه وعن مؤلفاته تنتقل من
الافتراء المقصود، والنقد الجائر، إلى المطاعن والمثالب الشخصية
المشربة بروح الشر والوقيعة .

وتحالفت مع هذه الحملات النكراء الموجهة إلى الشاعر أزمة
مالية حادة ألمت به منشؤها منصبه الجديد فى البلاط الذى كان
يقتضى الإسراف فى اللباس، والبذخ فى إعداد الولائم، علاوة
على ازدياد عدد أفراد أسرته، إذ صار أبا لأربعة أطفال*، وكان
عليه أيضا أن يعيل شقيقتيه وأخاه وبعض ذويه .

لقد بلغت ديون بوشكين، وقت أن قدم الطلب بالمأذونية
الطويلة الأمد، ستين ألف روبل (حوالى ستمائة جنيه ذهباً) ،

---

* (١) — الكسندر — صار جنرالا مقرباً من القيصر نيقولا الثانى ،
توفى فى موسكو سنة ١٩١٩ .
(٢) — غيريغوري — صار عضواً فى محكمة استئناف مدينة فلينا
وتوفى فيها سنة ١٩٠٥ .
(٣) — نتاليا — توفيت فى سنة ١٨٩٠ .
(٤) — ماريا — توفيت سنة ١٩١٩ .

وفى شهر كانون الثانى (يناير) سنة ١٨٣٤ جاء بطرسبورغ شاب فرنسى يدعى جورج دانتس ، فر من فرنسا إثر ثورة ١٨٣٠ لميل رجعى فى نفسه ، وبعد أن هام على وجهه فى أوروبا مدة أربع سنوات وهو عبثاً يسعى فى طلب المعاش ، ولى وجهه شطر البلاد الروسية فوافاه الحظ فيها ، وإذا به يشغل منصب ضابط فى الحرس الإمبراطورى الروسى ، ثم ما لبث أن تعرف إلى البارون هيكرن السفير الهولاندى فى بطرسبورغ وكان رجلاً لا يتمتع بسمعة طيبة فى أوساط بطرسبورغ ، وسرعان ما توطدت أواصر الصداقة والود بينهما ، وإذ كان السفير بلا عقب تبنى دانتس وحمله لقب أسرته فغدا يدعى البارون دانتس هيكرن ! . .

كان دانتس حسن الصورة ، رشيق الحركات ، كثير التملق ، فلاقى فى العاصمة الروسية نجاحاً كبيراً ، وحدث مرة أن رأى زوجة الشاعر فى إحدى الحفلات فأعجب بها ، وصار يتودد اليها بكل صفاقة وجه ، وقلة أدب ، وما هى إلا أيام حتى أخذ خصوم بوشكين يروجون الشائعات فى بطرسبورغ بصدد تودد دانتس إلى نتاليا ، فتداولتها الألسن ، وكثر اللغط حول موضوع كانت زوجة الشاعر براء منه .

أحب بوشكين زوجته حباً جماً ، وكان يغار على سمعتها ، فلما بلغته الشائعات المختلقة ، اضطربت أعصابه ، واسودت الدنيا فى وجهه ، وجعل يعمل الفكر فى طريقة يدافع بها عن شرفه ، ويثبت طهارة زوجته وأمانتها .

لم يجد الشاعر مناصاً من مبارزة دانتس بالسلاح النارى . . لكن هذا البراز ألا يعرض حياة الشاعر أيضاً إلى الخطر ؟ . . لقد جالت هذه الفكرة فى خاطر الكونت أولبرغ ، وهو أحد الأفراد القلائل الذين كانوا يعطفون على بوشكين ، فأسرع إلى أخى القيصر ميخائيل ، قائد الحرس القيصرى ، راجياً إياه الحيلولة دون البراز ضناً بحياة الشاعر ، مقترحا عليه ضم دانتس إلى الحملة القوقاسية ، لكن شيئاً لم يحدث لإنقاذ الشاعر من الهلاك ، بل على النقيض من ذلك كان البلاط الروسى بأسره ، ومن ورائه أوساط بطرسبورغ العليا ، يفضل الأفاق دانتس على بوشكين فخر الروس القومى وأمير شعرائهم على الإطلاق ، والواقع أن القوم كانوا يأملون بأن يسفر البراز عن مقتل خصمهم وما عليهم إلا أن يقفوا جانبا ينفخون فى النار ويتفرجون .

والعجيب فى بوشكين النابغة أنه حتى فى هذه الفترة العصيبة

من حياته لم يفتر عن خدمة الأدب ، فأصدر سنة ١٨٣٥ مجلة (المعاصر) ونشر فيها الشيء الكثير من كتاباته ، وقصائده ، وشذراته ، وتعليقاته ، كما فتح صدرها للكتاب الناشئين ، وهو أول من اكتشف مؤهلات غوغول وشجعه على التأليف ، وكان يقدم له العقد الروائية و يسأله أن ينشيء عليها القصص والروايات ، وقد أقر غوغول فيما بعد بفضل بوشكين عليه ، فكتب فى كتاب (اعترافات مؤلف) يقول : « لقد جعلنى بوشكين أنظر الى الأمور بعين الجد ، فحثنى على الشروع بالتأليف فلما قرأت عليه ذات يوم فصلاً من مسرحية صغيرة أعجب بها وقال — كيف لكاتب يحمل هذه المؤهلات ولا يشرع بعمل كتابى كبير ؟ . . إنها لخطيئة لا تغتفر ! . . ثم أخذ يتحدث عن ضعف بنيتى وأسقامى ، وقال علىّ أن أسرع بالتأليف قبل أن تضعا حداً لحياتى وأنا فى عنفوان شبابى ، وضرب لى مثلاً الكاتب الأسبانى الكبير سرفانتس سافدرا قائلاً إنه وضع عدداً من المسرحيات الجيدة لكنه لو لم يكتب (دون كيشوت) لما احتل تلك المكانة العالمية التى يحتلها اليوم ، وأخيراً قدم لى موضوعا كان يريده لنفسه ، وحول هذا

الموضوع كتبت روايتى الكبرى (الأرواح الميتة) »*.

قال غوغول فى مذكراته : « لما بدأت اقرأ لبوشكين الفصول الأربعة من (الأرواح الميتة) كان يستغرق فى الضحك حتى يستلق على قفاه ، لكننى لحظته يتغير شيئاً فشيئاً الى أن علت وجهه سحابة قاتمة من الكآبة ، ولما أتممت القراءة اعتدل فى جلسته وقال بصوت خافت : إلهى كم هى محزنة روسيا !

ونشر بوشكين فى أواخر حياته فى مجلته (المعاصر) روايته الكبيرة (ابنة الربان) وهى تمثل جانباً من حركات الفلاحين فى روسيا ، كما نشر (صوراً من أيام الفروسية) شرح فيها حالة الاقطاعيات الروسية فى القرون الوسطى ، وبدأ بنشر رواية شعرية لم ينجزها وهى رواية (الليالى المصرية) التى صور فيها بريشة الفنان الموهوب ماهية العبقرى ، وما تنطوى عليه نفسيته من ميول ونزعات .

ومن أواخر قصائده الغنائية قصيدة (القائد) وفحواها أن القائد (باركلاى دى تولى) قدم مشروعا جيداً للتخلص من نابليون

---

* — (الأرواح الميتة) — هى رواية انتقادية لاذعة للمجتمع الروسى وقد وصفها الناقد بلينسكى بقوله : إنها الضحك من خلال الدموع !

غير أن قومه لم يثقوا بمشروعه وأقالوه من مركزه ، ولما وقعت الواقعة وأثاروا الحرب المقدسة للدفاع عن الوطن لم يروا بداً من العمل وفاقاً لذلك المشروع الذى وضعه القائد باركلاى دى تولى ولم يكن ذلك القائد سوى الشاعر نفسه ! . . وقد ختم بوشكين تلك القصيدة ملمحاً الى شخصه فقال :

« أيها الناس ، يا من تستحقون الدموع والسخرية ،
يا عبدة الفرص ، ويا عشاق التوفيق ،
كم من مرة عبر الشاعر بجيكم ،
وهو عرضة لمثالب العصر الأعمى الجموح ،
ولكن ما يبهجه ويعزيه :
هو أن صوته العالى ،
سينفذ إلى قلوب الأجيال القادمة ! »

لقد أدرك بوشكين قبيل مقتله أن مؤامرة تحاك حوله للقضاء عليه ، فأحس أن بموته خسارة لوطنه الكبير، فاذا به يضع قصيدة (التمثال) يستعرض فيها ذلك الطريق الذى اجتازه ، وذلك الإرث الثقافى الذى خلفه لروسيا ، فقال فيها ما ترجمته : « كلا ، إننى لن أموت ، فالذى يفنى هو جسمى فقط ، وأما روحى

فستظل دائماً حية ما بقى على وجه البسيطة شريف واحد . .
وسيجتاز صيتى روسيا العظمى ، وسيذكرنى فيها كل لسان
كائن : من صقلبى وفنلندى ، ومن تونغوزى وكالميكى ! »

مبارزة وموت

تلقى الشاعر فى الرابع من شهر تشرين الثانى (نوفمبر)
سنة ١٨٣٦ رسالة بالبريد خالية من التوقيع وقد تعمد مرسلها إثارة
شعور بوشكين ، وإضرام النار فى قلبه ، فجاء فيها ما يلى :
« اجتمع القواد والفرسان العظام لفرقة حملة القرون السامية ،
برآسة رئيس الفرقة المسيو ناريشكين ، وقد أقروا بالاجماع انتخاب
الكسندر بوشكين نائب رئيس فرقة حملة القرون ، ومؤرخاً
لتلك الفرقة ! »

وناريشكين هذا الذى ورد اسمه فى الرسالة كان زوج محظية
القيصر الكسندر الأول ، وقد قصد مرسلو الرسالة من ذكره فى
ذلك القالب التهكمى التعريض بشرف الشاعر ، والإشارة إلى
أن زوجته إن هى إلا محظية لنقولا الأول كما كانت زوجة

ناريشكين محظية لالكسندر الأول ، واتهام الشاعر بأنه يعلم بذلك وراض عنه .

وقد ظهر فيما بعد أن كاتب هذه الرسالة هو أمير خليع يدعى (دولغو روكوف) ، يسنده رهط من الفتيان الأعيان المستهترين و بعض الموظفين القيصريين ، وجماعة من أعضاء السلك الدبلوماسى وفى طليعتهم سفير هولاندا البارون هيكرن .

كان بوشكين مقتنعاً كل الاقتناع بأن البارون هيكرن متبنى دانتس هو الذى أوحى لدولغوركوف كتابة الرسالة السفيهة المذكورة ، ولذا عقد النية على دعوة السفير نفسه إلى البراز لكنه فطن إلى أن مركز هيكرن الدبلوماسى ، وكبر سنه ، يتنافيان مع شروط المبارزة ، ولذا وجه الدعوة إلى دانتس ، ذلك الضابط الفرنسى الطريد الذى كان آلة آثمة فى يد غيره لتسميم حياة الشاعر العائلية .

وسرعان ما أدرك البارون هيكرن أنه مهما كانت نتيجة البراز فسيفقد مركزه كسفير لبلاده فى روسيا ، وهو مركز كان يتهالك عليه ، ففتقت له الحيلة بأن أوعز إلى ربيبه بطلب يد كاترينا غونتشاروفا شقيقة زوجة الشاعر ، و بذلك تتم المصالحة ويصبح الجميع أفراد أسرة واحدة !

وفعلا اقترن دانتس من كاترينا ، واسترد الشاعر الدعوة وقد صمم ، على ألا تكون له أية علاقة بهذا « النسيب » الجديد ، ولكن ما كاد شهر العسل ينقضى على دانتس حتى تابع تودده إلى زوجة الشاعر ، وعادت أوساط بطرسبورغ الرفيعة تحيك شتى القصص والشائعات حول نتاليا وتغمز ببوشكين وتتهكم عليه ، وتطعنه فى شرفه وكرامته .

لقد اقتنع بوشكين فى أواخر أيامه أنه يعيش فى جو مسمم ، وأنه محاط بجدار من الأعداء ، وأن القيصر ، وبنكندورف ، ووزراء الدولة ، يلاحقونه ويسدون عليه المنافذ وأن الأوساط الروسية العليا تشن عليه الحملات العنيفة ، وأن حاشية البلاط لا تألو جهداً فى تحطيم حياته العائلية ، وأن أصحاب المجلات والصحف المتمسحين بأعتاب القيصر لم يتركوا فرصة للحط من قيمة تآليفه إلا اغتنموها ، وأن الضائقة المالية شددت الخناق عليه وغدا مدخوله أقل بكثير مما تتطلبه أسرته من نفقات ، وأن القيصر لا يسمح له بترك بطرسبورغ طالباً منه البقاء بها والمساهمة فى حياة البلاط المتفسخة ، فكان لهذه العوامل كلها مشتركة أن جعلته يلتمس سبيل الخلاص بأى ثمن كان .

قام بوشكين بآخر محاولة في امتحان عدل القيصر وانصافه بأن قدم له رسالة وصف فيها الدسائس التي تدبر ضده ، مفهماً إياه بأن ما تلوكه الألسن من أقوال وتخرصات إنما تعم القيصر نفسه أيضاً . . وكان جواب نيقولا الأول على هذه الرسالة : « آمرك بالصمت ! » .

هنا قر قرار الشاعر على أن يقاتل أحد أعدائه مهما كانت النتائج ، فأرسل في السادس والعشرين من شهر كانون الثاني يناير سنة ١٨٣٧ رسالة إلى دانتس تحداه فيها ونعته بأحقر النعوت وأكد له بأنه يكون فاقد الحس والوجدان إن لم يقبل المبارزة ! فلم يسع دانتس إلا قبول التحدي وكان شاهده أحد موظفي السفارة الفرنسية في بطرسبورغ المسيو دي آرشياك ، وكان شاهد بوشكين صديقاً له يدعى دانزاس .

كان الشاعر قبيل المبارزة هادئاً مرحاً يراجع أعمال مجلته كأن شيئاً لن يحدث ، فعلق على بعض المواضيع ، وراجع عدداً معداً للطبع ، وأجاب على رسائل وردت إليه ، وترك كلمة للكاتبة الروسية ايشيموفا تتعلق بشؤون المجلة الإدارية .

وفي السابع والعشرين من شهر كانون الثاني (يناير)

سنة ١٨٣٧ أقلت زحافتان بوشكين وشاهده ، ودانتس وشاهده ، وذهبتا بهم إلى ضواحى بطرسبورغ ، حيث وقفتا عند مكان يعرف بالنهير الأسود ، وهناك هبط الأربعة وسووا المساحة ، المغطاة بالثلوج الكثيفة بأقدامهم وقاسوا المسافة وجعلوا البرانس حداً للمتبارزين ، ولدى صدور الإشارة شرع كل منهما يسير فى اتجاه معاكس ، ثم دار فجأة عند الحد الفاصل ، وكان دانتس قد سبق بوشكين باطلاق النار فأصابه فى بطنه بجرح مميت ، وإذ شعر بوشكين ببعض النشاط يعاوده أحب الاستفادة من حقه بالرد على خصمه فنهض قليلا وهو مستلق على الثلج وأطلق عياراً على دانتس فأصابه بجرح طفيف جداً .

كانت نتاليا تنتظر بوشكين لتتناول الغداء بفارغ الصبر ، وقد استغربت تأخيره على غير عادته ، وبينما هى تضرب أخماساً بأسداس إذ بها تسمع جلبة عند باب الدار ، وقرعاً عنيفاً ، ثم فتح الباب ودخل دانزاس إلى غرفة الطعام وأخبر نتاليا بأن زوجها جرح فى براز مع دانتس وسألها أن تملك روعها وأن تكون رابطة الجأش ثابتة الجنان . . ولكن ما كادت نتاليا ترى زوجها مضرجاً بدمه حتى سقطت عليه فاقدة الرشد .

عانى بوشكين آلاماً مبرحة فى ساعاته الأخيرة إلا أنه احتملها برجولة وهدوء ، أما نيقولا الأول فقد ظل يضايقه حتى وهو على فراش الموت ، فأرسل له كتاباً يطلب منه فيه أن يقوم بطقوس الكنيسة الأرثوذكسية جاعلا ذلك شرطاً لضمان معيشة زوجته وأطفاله .

وقبل أن يلفظ أمير شعراء روسيا نفسه الأخير طلب السماح من أصدقائه . والمحيطين به ، وطبع على جبين زوجته قبلة الوداع ، وبارك أطفاله . وفى الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والأربعين من بعد ظهر التاسع والعشرين من شهر كانون الثانى (يناير) سنة ١٨٣٧ أسدل الستار على حياة الكسندر بوشكين ، واختفى ذلك العبقرى الخالد الذى تمكن خلال سبع عشرة سنة من حياته الإنتاجية من تجديد الأدب الروسى ، وفتح آفاق واسعة لمفكرى الروس ، وأدبائهم ، وشعرائهم .

ولما بلغ نيقولا الأول نبأ موت بوشكين قال : « لقد توقعت له هذه الخاتمة ! »

ظل جثمان الشاعر معروضاً فى بيته مدة ثلاثة أيام ، وقد احتشد خلق عظيم عند مداخل البيت ، وكلهم يصبو إلى

تشييع الراحل بالنظرة الأخيرة ، ويقال إن عدد الذين شاهدوا جثمان الشاعر بلغ مئتى ألف نسمة !

وإذا رأى القيصر أن دفن بوشكين فى بطرسبورغ أو موسكو ستتأتى عنه متاعب جمة ، أصدر أمره بنقل جثمانه خفية إلى دير سفياتوغورسكى الواقع بالقرب من قرية ميخايلوفسك .

وفى صبيحة أول شباط (فبراير) سنة ١٨٣٧ ، شاهد جماعة من فلاحى ضواحى بطرسبورغ زحافة تحمل تابوتاً تجرها أربعة جياد مطهمة وهى تسرع السير جنوباً ، وتعدو فى أثرها ثلة من الدرك المسلح !

انتهى

النبي

« جبت القفر القاتم متعثراً ،
وأنا تعب من نفسى الظامئة ،
وعند ملتقى الطرق ومفترقها ،
ظهر لى ملاك بستة أجنحة ،
مر بأصابعه على عينى ،
فكان لمسه رفيقاً كالحلم ،
فتحت عينى وجلا ،
وكأننى نسر قد بوغت فى وكره ،

* * *

مر بأصابعه على أذنى ،
فملأهما بالضجيج والطنين ،
وسمعت دوران الأجرام فى السماء ،
والملائكة تجر أذيالها فى الفضاء ،
والوحوش تتحرك فى أعماق البحار ،

والكرمة تعرش فى الوادى ،

* * *

مدّ يده إلى فمى ،
واستل لسانى الخاطئ ،
فمحا الخبث والأقوال الفاسدة ،
وبيده الملوثة بالدم ،
وضع لسان الحية الحكيمة ،
مكان ذلك اللسان ،

* * *

ثم شق صدرى بسيف ،
ونزع منه قلبى الخافق ،
وأثبت مكانه ،
فحمة تتأجج بالنار !
استلقيت فى القفر ، وكأننى جثة هامدة ،
وسمعت صوت الله يقول : قم أيها النبى ، راقب ، واصغ
واعمل حسب مشيئتى ! . . طف فى القفار والبحار ،
وبكلمتى أوقد النار فى قلوب الناس ! »

الطلسم

هناك حيث البحر ،
يغسل دائماً الصخور الجرداء ،
هناك حيث القمر ،
يسطع دائماً فى كبـد السماء ،
هناك حيث ابن القوقاز ،
يقضى الأيام مع غادته الهيفاء ،
هناك قدمت لى الساحرة ،
غلافاً فيـه طلسم !
قالت مداعبة :
احتفظ بطلسمى ،
فيه قوة خفية ،
إنى أعطيك إياه ،
من أجل الحب فقط !
إنه لن ينفعك فى أويقات الأخطار والأحزان ،

إنه لن ينقذ رأسك فى فترات العواصف والأعاصير ،
إنه لن يمنحك ثروة الشرق ،
ولن يُخضع لك أبناء جيلنا الأشم ،
ولن ينقلك من بلاد الغربة الحزينة ،
إلى أصدقائك ووطنك فى الشمال .
ولكن إذا ما العيون الخبيثة ،
سلبت منك لُبّك ،
و إذا ما الأفواه فى ظلام الليل ،
همت بتقبيلك ،
و إذا ما الخيانات الجديدة ،
أدمت منك قلبك ،
عندها عليك بطلسمى ،
فهو ينفعك و يحفظك .

فهرس الأسماء

(١) تيمناً بهانيبال القرطاجنى : ابن زعيم قرطاجنة هاميلكار ، وهو من أعظم القواد الساميين ولد فى أسبانية سنة ٢٤٧ قبل الميلاد ، ثم هاجم إيطاليا بأربعين ألفاً من جنوده ، وسحق ثلاثة جيوش رومانية ، ومات فى سوريا سنة ١٨٣ قبل الميلاد .

(٢) إيڤان إيڤانوڤتش بوشين : شاعر ، وهو من أصدقاء بوشكين المقربين ، درس وإياه فى المعهد القيصرى ، ثم ساهم فى الحركة الأدبية فى بطرسبورغ ، واشترك فى انقلاب الدسمبريين فى ١٤ ديسمبر سنة ١٨٢٥ ونفى إلى سيبيريا .

(٣) ولهلم كارلوڤتش كوخيلبيكر : شاعر ، وزميل بوشكين فى المعهد ، ومن أنصاره فى الحركة الأدبية ، اشترك فى الحركة الدسمبرية .

(٤) أنطون أنطونوڤيتش دلڤيج : (١٧٩٨ — ١٨٣١) ، زميل بوشكين فى المعهد ، شاعر فنان ينحو نحو الكلاسيكيين ، أصدر مجلة (الصحيفة الأدبية) فى بطرسبورغ .

(٥) جريجورى نيقولايڤتش تشرنيشڤسكى : (١٨٢٨ — ١٨٨٩) ، كاتب وعالم كبير ، ديمقراطى النزعة ، ومن دعاة الاصلاح ، اعتقل سنة ١٨٦٢ وحكم عليه بالنفى لمدة ١٤ سنة ، والابعاد إلى سيبيريا مدى الحياة .

(٦) الدسمبريون : فريق من الضباط الروس النبلاء ، تأثروا بمبادىء الثورة الفرنسية الكبرى ، وحاولوا القيام بانقلاب دستورى فى ١٤ ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٨٢٥ ، لكنهم فشلوا ، وأعدم خمسة من زعمائهم ، وعرفوا فيما بعد بالدسمبريين .

(٧) بيترجا كوبليڤتش تشادايف : أحد ضباط فرقة الفرسان القيصرية

وهو مفكر ديمقراطى ، وعضو فى جمعية (آرزاماس) الأدبية .

(٨) آريست اسم أغريقى تخيله الشاعر .

(٩) ايفان ايفانوفيتش ديميتريف — (١٧٦٠ — ١٨٣٧) شاعر ومن رجال الدولة ، كان وزيرا للعدل إبان حكم السكندر الأول ترك مجموعة قيمة من الشعر والقصص

(١٠) غابريلا روما نوفتش درجافين — شاعر روسى كبير ، ولد فى قازان سنة ١٧٤٣ ، انتظم فى الجيش ، وكان حاكماً لمنطقة تومبوف ثم غدا سكرتير ديوان كاترين الثانية ، نظم لها أناشيد كثيرة ، وهو واضع النشيد القيصرى المعروف ، وكان وزيراً للحقانية إبان السكندر الأول ، ومات فى ٢١ تموز (يوليو) سنة ١٨١٦ .

(١١) ميخائيل فاسيليفتش لومونو سوف — شاعر وعالم ، ولد فى جزيرة دينيسوفكا سنة ١٧١١ بالقرب من ولاية ارخانجل ، درس التعدين والكيمياء ، ونظم الشعر ، وكان مديراً لجامعة بطرسبورغ ثم وزيراً للمعارف ، وقد ترك أثراً كبيراً فى تجديد الأجرومية الروسية وإحياء البيان والبلاغة الروسيين ومات سنة ١٧٦٥ .

(١٢) تشرفونتس — نقد روسى يعادل عشرة روبلات ، أونصف جنيه انكليزى .

(١٣) جوفينال — هو ديسيموس يونيوس جوفيناليس ، شاعر رومانى هجائى تهكمى ، عاش فى سنى ١٤٠ — ٦٠ قبل الميلاد .

(١٤) نيقولاى ميخايلوفتش كارامزين — مؤرخ ناقد ، روائى وشاعر ، ولد فى ولاية اورنبوغ سنة ١٧٦٥ ، وهو تترى الأصل أصدر سنة ١٧٨٩ (صحيفة موسكو) ، وأصدر سنة ١٨٠٢ مجلة (الرسول الأوربى) وكتب تاريخ الدولة الروسية ، وكان من أنصار الأوتوقراطية ، يمجد ايفان الرهيب ، ويتغنى بالاستبداد مات سنة ١٨٢٦ .

(١٥) فاسيلى اندريفتش جوكوفسكى — شاعر ، ولد فى ولاية تولا سنة ١٧٨٣ ، من شعراء العصر الذهبي للشعر الروسى ، له ديوان فى الغزل والمراثى ، ومن جلائل أعماله تعريفه الروس بالأدب الإنكليزى وغيره ، وهو الذى ترجم الأوديسى إلى الروسية ، وكان مربياً لالكسندر الثانى ، مات سنة ١٨٥٢ .

(١٦) كونستانتين نيقولايفتش باتيوشكوف — (١٧٨٧ — ١٨٥٥) شاعر روسى برز فى نظم المراثى الكلاسيكية .

(١٧) الأميرال الكسندر شيشكوف — (١٧٥٤ — ١٨٤١) زعيم المحافظين فى الأدب الروسى ، ومن خصوم الرومانطيقية الفرنسية فى الشعر

(١٨) حق الاسترقاق — كان نظام الأراضى فى روسيا حتى أواسط القرن التاسع عشر يقوم على حق استملاك الفلاحين واسترقاقهم ، فيبيعهم الملاك إن شاء ويبتاع غيرهم إذا لزم الأمر ، ولم يلغ هذا النظام إلا سنة ١٨٦١ ، وقت أن تطلب التطور الصناعى حرية اليد العاملة .

(١٩) اليعاقبة — فى الأصل هم رهبان دير القديس جاكوب الواقع فى شارع سانت أونوره بباريس ، ولما هبت الثورة الفرنسية أخذ أنصار روبسبير الديمقراطيون المتطرفون يعقدون اجتماعاتهم فى هذا الدير ، ثم عرفوا فى التاريخ الفرنسي باليعاقبة أو اليعقوبيين .

(٢٠) نيقولاى نيقولايفتش رايفسكى — زميل بوشكين فى المعهد القيصرى ، ومن أنصاره فى الحركة الأدبية ، كان دسمبرياً نشيطاً .

(٢١) الكسندر نيقولايفتش رايفسكى — أديب ، بعيد النظر ، أعجب به بوشكين ، ووصف سجاياه فى قصيدة (المارد) .

(٢٢) باول إيفانوفيتش بيستل — ضابط فى فرقة الفرسان ، وزعيم الدسمبريين ، اشترك فى حركة ١٤ ديسمبر سنة ١٨٢٥ ، وأعدم .

(٢٣) ليونيداس — ملك أسبرطة ، تولى الدفاع عن بلاده وقت أن

هاجمها أجزرنسيس بن دارا الفارسى سنة ٤٨٠ ، وقتل عند مدخل ترموبيلاوى .

(٢٤) تيموستوكليس — رئيس حكام أثينا ، تولى قيادة الأسطول اليونانى وقت أن هاجم اجزرنسيس اليونان ، وقد دافع عن وطنه دفاعاً مجيداً .

(٢٥) كوندراتى ريليف — (١٧٩٥ — ١٨٢٦) شاعر حماسى من أتباع مدرسة لدمونوسوف ، دسمبرى ، اشترك فى الحركة الدسمبرية وأعدم

(٢٦) بولتافا — فى سنة ١٧٠٩ تغلب بطرس الأكبر على شارل الثانى عشر ملك السويد فى معركة بولتافا من أعمال أوكرانيا ، وهزمه شر هزيمة ، وظل يطارده حتى الجأه إلى الآستانة .

(٢٧) فساريون جريجوريفتش بلينسكى — من أشهر النقادة الروس ولد سنة ١٨١١ ، وهو ابن طبيب عسكرى تخرج من جامعة موسكو وكانت أولى رواياته (تلسكوب ناديوجدين) ومات سنة ١٨٤٨ .

(٢٨) نيقولاى فاسيليفتش غوغول — روائى روسى كبير ، اشتهر بالنقد التهكمى لمجتمعه ، ولد سنة ١٨٠٩ فى بولتافا من أعمال أوكرانيا ، زهد فى آخر حياته فأحرق الكثير من مخطوطاته ، ومات بنوبة عصبية سنة ١٨٥٢ .

(٢٩) دميترى فاسيليفتش غريغوريفتش شاعر وقصصى روسى ، ولد سنة ١٨٢٢ فى بلدة سمبرسك ، بدأ حياته الفنية بالتمثيل المسرحى ، ثم صار ينظم الشعر المتين ، ويضع القصص التى يصور فيها حياة القرية الروسية .

(٣٠) فيودور ميخايلوفتش دستويفسكى — روائى سيكولوجى كبير ، ولد سنة ١٨٢١ فى موسكو ، كان حر النزعة وحكم عليه بالاعدام الوهمى ثم بالنفى إلى سيبيريا لمدة عشر سنوات ، وله روايات قيمة ، وكانت وفاته سنة ١٨٨١ .

(٣١) نيقولاى الكسيفتش نيكراسوف – شاعر كبير ، ومصلح بارز ، ولد فى بودوليا سنة ١٨٢١ ، كان ينزع إلى تصوير آلام الشعب ، توفى سنة ١٨٧٧ .

(٣٢) بيتر الكسيفتش بليتنيف – أديب ، وصديق بوشكين الحميم ، وبيت أسراره .

(٣٣) بيتر أندريفتش فيازيمسكى – (١٧٩٢ — ١٨٧٨) شاعر عميق الفكر ، وأحد النقاد الروس البارزين .

(٣٤) إيمليان بوغاتشوف — فلاح من قوزاق الدون ، أعلن الثورة على كاترين الثانية ، وكان أنصاره يعتقدون أنه زوج القيصرة المختنق بيتر فيدوروفتش ، وبيتر هذا هو ابن اليزابيت بتروفنا (ابنة بطرس الأكبر) ، اعتلى العرش إثر وفاتها ، وقد سعى فردريك الكبير البروسى من تزويج كاترين الثانية به ، وسرعان ما اغتيل بيتر وانفردت كاترين بالسلطة ، غير أن فلاحى الدون الثائرين لم يقتنعوا بأنه مات وكانوا يعتقدون أن إيمليان بوغاتشوف إن هو إلا بيتر فيدوروفتش ، ويجب أن يعاد إلى منصة الحكم .

(٣٥) الكسندر فاسيليفتش سوفورف – (١٧٢٩ — ١٨٠٠) القائد الروسى الشهير ، وأظهر مواهب فائقة فى تنظيم الجيش الروسى ، أخمد ثورة بوغاتشوف ، ولعب دوراً كبيراً فى الحرب الوطنية الأولى ضد نابليون ، ووسام سوفورف اليوم من الأوسمة السوفياتية الكبيرة .

جائزة « اقرأ » لسنة ١٩٤٤

نتيجة الاستفتاء

فى اليوم الخامس عشر من شهر فبراير سنة ١٩٤٥ اجتمعت لجنة الاستفتاء المؤلفة من أعضاء لجنة « اقرأ » حضرات الأساتذة الدكتور طه حسين بك وأنطون الجميّل بك وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف ومن الأساتذة شفيق نجيب مترى صاحب دار المعارف ويوسف مشاقه مديرها وعادل الغضبان مدير القسم الأدبى فيها ونظرت فى الأصوات الواردة عن الاستفتاء وعددها ٢٧٦١ صوتاً فقررت استبعاد ١٣٢ صوتاً لمخالفتها شروط الاستفتاء وكان الكتاب الفائز هو كتاب «سيدة القصور» للأستاذ على الجارم بك فاستحق جائزة « إقرأ » لسنة ١٩٤٤ وقدرها خمسون جنيهاً مصرياً وكان الكتاب الثانى « جحا فى جانبولاد » للأستاذ محمد فريد أبو حديد .

ولقد أعلنت هذه النتيجة فى حفلة الشاى التى أقيمت فى الساعة الخامسة من اليوم المذكور واقترع فيها على جوائز القراء فأسفر الاقتراع عما يأتى :

الجائزة الأولى وقدرها ٢٥ جنيهاً

لحضرة حسين محمد شكرى بطنطا

الجائزة الثانية وقدرها ١٠ جنيهات

لحضرة عبد الحكم على العدل بالبتانون بالمنوفية

الجائزة الثالثة وقدرها ٥ جنيهات

لحضرة الآنسة نعمت عبد الفتاح بالاسكندرية

الجائزة الرابعة إلى الثالثة عشرة وقدر كل منها جنيه واحد من نصيب حضرات

محمود كامل عبد الحميد بطنطا مصطفى أحمد بكرى بمنفلوط
ومحمد عثمان على بلول بالسودان ومحمد فهمى الغر بطنطا
ومحمد محمود فؤاد بالجيزة وعبد الرحمن سيد حسين بأسيوط
وعبد الباقى عباس الدراملى بقنا ومصطفى الهاى هاشم بشبرا
ومحمود شوقى العاصى بطنطا وفايز حسين المبيض بشرق الأردن